جم سلطان والدبلوماسية الدولية

موضوع اللاجئين السياسيين فى الشرق الإسلامى من الموضوعات التى استدعت انتباه المؤرخين فى الفترة الأخيرة[1]. وهى فضلا عن أنها تمثل اتجاهاً معيناً فى أبحاث التاريخ الإسلامى له جدته وأهميته فإنها تعتبر دعوة لإعادة النظر فى بحث طبيعة العلاقات الخارجية للدول الإسلامية وخاصة ما كان منها ذا صلة بالدول الأوروبية . ويهمنا فى هذا الصدد وعلى وجه التخصيص ، مصر الإسلامية المملوكية . فالمؤرخون المصريون فى هذه الفترة ، لا يهتمون عادة إلا بذكر خبر وصول القصاد والرسل والسفراء إلى القاهرة ومغادرتهم لها ، أو بإرسالهم من قبل سلاطين المماليك . وقل أن نجد منهم من يهتم بما وراء ذلك ، إلا إذا كان ذا حظوة لدى السلطان القائم بالأمر، تتيح له الاطلاع على حقائق الأمور ومداخلها ومخارجها . واهتمامهم هذا يكاد يقتصر على ماهو خاص بالدول والإمارات الإسلامية . أما ما كان منها خاصاً بالدول الأوروبية التى تربطها بالدولة المملوكية مصالح عديدة ، فإن الباحث يضنيه التعب حتى يظفر بخبر قصير مقتضب يشير أحيانا إلى اسم الدولة التابع لها الرسول ، ولكنه فى غالب الأحيان ينسب إلى طوائف الفرنج مجتمعة . هذا ، بالإضافة إلى أن العلاقات الخارجية لا يمكن أن توفى حقها من البحث العلمى الدقيق إلا بالاطلاع على الوثائق التاريخية من مكاتبات أو معاهدات . وللأسف الشديد فإن هذه الوثائق الخاصة بمصر المملوكية فقدت معظم صورها الأصلية المكتوبة باللغة العربية ، ولم يصل إلينا منها إلا النزر

---

(١) انظر :

Wiet: Deux princes ottomans à la cour d'Egypte, dans B. I. E., T. xx, Le Caire 1938, pp. 137-150 - Refugiés politiques ottomans en Egypte, dans Arabica, T. 1 Sept. 1654, Fasc. 3, pp. 257-271.

القايل أو النسخ المترجمة إلى اللغة اللاتينية أو اللغات الأوروبية المحفوظة بدور الوثائق والمكتبات فى أوروبا وفى استانبول .

وجم سلطان هو أحد هؤلاء اللاجئين السياسيين إلى مصر ثم إلى رودس والتجاؤه إلى مصر وما أعقب ذلك من نشوب الحرب بين العثمانيين والمماليك ، يفسره تاريخ العلاقات بينهما منذ عهد بايزيد الأول وبرقوق وابنه الناصر فرج(٢) . فما حدث فى عام ١٤٨٤ ، كان على وشك الحدوث بين الدولتين فى مطلع القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر الميلادى ، لو لم يحل دون ذلك غزو تيمورلنك لبلاد الشام ولآسيا الصغرى ، وهزيمته لبايزيد الأول فى موقعة أنقرة وأسره له فى عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠٢م . ومرجع ذلك إلى تنازع النفوذ بين الدولتين بآسيا الصغرى ورغبة العثمانيين فى توحيد آسيا الصغرى تحت رايتهم والقضاء على النفوذ المملوكى بها . وقد خرج العثمانيون من معركة أنقرة بدرسٍ بالغٍ ، وهو أن الوقت لم يحن لتنفيذ خطتهم هذه بحد السيف . وكانت سياستهم تقوم على الاحتفاظ بالوضع الراهن فى آسيا الصغرى ، دون أن يؤدى ذلك إلى التصادم مع المماليك أو مع غيرهم من القوى المجاورة ، حتى يفرغوا من تأمين فتوحاتهم فى أوربا . ولذلك فإن الفترة الواقعة بين عام ١٤١٣ ، وهو العام الذى تمكن فيه محمد الأول من تصفية اخوته المنافسين له على العرش ، وبين عام ١٤٥٣ ، وهو تاريخ فتح القسطنطينية ، مليئةً بحوادث الحرب الباردة بين الدولتين وحرص كل منهما على تثبيت سيادتها على الإمارات الحاجزة بينهما وخاصة إمارة قرهان وإمارة دلغادر . فالمماليك لم يتركوا فرصةً إلّا اغتنموها، لتدعيم سلطانهم على هاتين الإمارتين ، كما حدث فى عهد المؤيد ، وبرسباى وإينال ، وخشقدم وقايتباى. وقد أثبتت الأبحاث الأخيرة أن الخطابات المتبادلة بين الدولتين والتى تعبّر عن مظاهر

---

(٢) عن العلاقات الودية بين المماليك والعثمانيين فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى انظر :

Bjorkmann : Die frühesten turkisch - agyptischen beziehung. in 14 jahrundert, dans Mélanges Fuad Koprülü, Istambul, 1953.

والود والصداقة وتبادل التهانى والاحتفالات بمناسبة الانتصارات على المسيحيين لم تكن إلا ستاراً يُخفى وراءه حقيقة العلاقات من تغايرٍ وتحاسدٍ وتربصِ كل منهما بالأخرى .

ولم يكن جم أول اللاجئين العثمانيين إلى مصر ولا آخرهم . فقد التجأ إليها كثيرون من أمراء القرمانية والدلغادرية الخارجين على طاعة العثمانيين . وشهد بلاط العثمانيين أيضاً كثيرون من هؤلاء الأمراء ومن أمراء المماليك(٣) .

وقد أخذ محمد الثانى بعد فتحه للقسطنطينية يتجه من جديد إلى العمل على توحيد آسيا الصغرى وترقب الأسباب لذلك . وكاد يفرغ من هذه المهمة فى السنوات الأخيرة من حياته ، وكاد أن يؤدى ذلك إلى الحرب مع المماليك لولا أن فاجأه الموت وهو بآسيا الصغرى فى منتصف عام ١٤٨١ . ثم أعقب ذلك النزاع بين ولديه ، بايزيد الثانى وجم ، والتجاء جم إلى القاهرة . ولكى نفهم ترحيب قايتباى بجم ومساعدته له ، لابدّ أن نرجع إلى الوراء إلى عصر إينال وعصر خشقدم لنتتبع حقيقة العلاقات بين الدولتين .

فعلى الرغم من تبادل السفارات ورسائل التهانى بين محمد الثانى وإينال بمناسبة فتح القسطنطينية وبمناسبة انتصاره فى موقعة نوڤوبردا على جورج برانكوڤتش ملك الصرب فى عام ١٤٥٦(٤) ، فإن الباحث يلمس بوادر الاحتكاك بين الدولتين .

---

(٣) انظر :

مجموعة الرسائل المتبادلة بين سلاطين العثمانيين والمماليك بالمخطوط رقم ٤٤٤٠ بالمكتبة الأهلية بباريس (المخطوط يعد للنشر) ـ

Krammers : De la défaite d'Ankara à la prise de Constantinople, dans R. E. I. , 1938 cahier I .

Darrag: L'Egypt sous le règne de Barsby (thèse sous presse) chap. x, La frontière orientale.

Wiet : Deux prinies, Annexe I, p. 147,

(٤) فيما يختص بفتح القسطنطينية انظر :

خطاب محمد الثانى إلى اينال يبشره بالفتح [فريدون بك : مجموعة منشئات السلاطين ، =

فمحمد الثانى لم يكتب بإبلاغ نبأ فتح القسطنطينية لإينال بل قام بإبلاغه أيضا إلى شريف مكة ، وطلب منه إعلان هـذه البشرى من فوق منابر مكة وتوزيع الصدقات التى أرسلها بهذه المناسبة على فقراء الحرمين . ولم ينظر السلطان المملوكى إلى هذا الاتصال المباشر بشريف مكة بعين الارتياح ، واعتبر ذلك تخطياً له بوصفه صاحب السيادة على الحرمين ، ولم يغب عنه خطورة هذا الاتجاه الجديد للعثمانيين نحو الأراضى المقدسة . ولذلك لم يفته لفت نظر السلطان العثمانى إلى تخطّيه إيّاه ، فتولى الرد نيابة عن شريف مكة وأرفق ردّه هذا بردٍّ شخصىٍّ من شريف مكة ، الذى لم يفته بدوره أن يطلب المزيد من إرسال الصدقات وأن يرسل إلى محمد الثانى بعض الشاشات المزمزمة بركةً من الله(٥) . وإذا كان إينال قد قاوم هـذا الاتجاه للعثمانيين برفقٍ فقد قاومه خشقدم بشدةٍ وعنف .

أمّا فى آسيا الصغرى فإن كلّا من العاهلين عمل على الحدّ من نفوذ إبراهيم بك ابن قرمان والقضاء على أطماعه التوسعية على حساب كلٍ من الدولتين وإجباره على الاعتراف بسيادتهما . فقد قام هـذا الأمير جرياً على سياسة أسلافه بمهاجمة الأراضى العثمانية فى غرب آسيا الصغرى منتهزاً الفترة الحرجة التى مرت بالدولة العثمانية فى أوائل سلطنة محمد الثانى ثم انشغاله بالاستعداد لمهاجمة القسطنطينية . وانتهت هـذه

= ج ٢ ، ص ٢٢٨ ـ ٢٣١ ؛ منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٥٧ ـ ٢٦٣] ـ جواب اينال المؤرخ فى ٢٠ من ذى القعدة ٨٥٧ هـ ـ مخطوط رقم ٤٤٤٠ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ١٥٧ ب ـ ١٦٠ ب ؛ فريدون بك : نفس المرجع ، ص ٢٣١ـ٢٣٢ ؛ منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩] ـ رد محمد الثانى المؤرخ فى ٢٢ من ربيع الآخر ٨٥٨ هـ والذى ورد إلى القاهرة فى ٣ من شعبان ٨٥٨هـ [مخطوط رقم ٤٤٤٠، ورقة ١٦٠ ب ـ ١٦٢ ا] وفيما يختص بانتصار محمد الثانى على ملك الصرب انظر :

خطاب محمد الثانى إلى اينال المؤرخ فى ٢ من ذى الحجة ٨٥٩ هـ والذى ورد إلى القاهرة فى آخر جمادى الأولى ٨٦٠هـ [مخطوط رقم ٤٤٤٠ ، ورقة ٧٨ ب ـ ٨٠ ب] ـ جواب إينال المؤرخ فى أول رجب ٨٦٠ هـ [نفس المرجع ، ورقة ٨٠ ب ـ ١٨٣ ا] .

(٥) فريدون بك ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ [خطاب محمد الثانى إلى شريف مكة]، ص ٢٣٣ـ٢٣٦ [جوب إينال نيابة عن شريف مكة] ، ص ٢٣٦ـ٢٣٧ [جواب شريف مكة] .

الحرب كما انتهت سابقاتها بانسحاب القرمانيين بمجرد عبور الجيش العثمانى للبوسفور والإسراع بعرض الصلح والاعتراف بالسيادة العثمانيـــة ، وهو الصلح الذى تم فى ١٢ فبراير ١٤٥٤(٦) .

ولم يسكت إبراهيم بك على هذه الهزيمة وحاول الحصول على مساعدة الدولة المملوكية . فوصل قاصده إلى القاهرة فى ١٧ محرم ٨٥٩هـ / يناير ١٤٥٥م يشكو من محمد الثانى ، فلم يلتفت السلطان إليه(٧) .

وأثاره هذا الانصراف عنه ، فقام فى العام التالى بالإغارة على أطراف الدولة المملوكية المجاورة لإمارته ، واستولى على مدينة طرطوس وقلعة الكولك . واضطر إينال إلى تجريد الحملات ضده . وتبادل الفريقان الهزيمة والانتصار وانتهت هذه الحرب باسترجاع المماليك لممتلكاتهم ثم أتبعوا ذلك بالتوغل داخل إمارته يحرقون ويخربون(٨) . فأُجبروه على طلب عقد الصلح فى عام ٨٦٢هـ/١٤٥٨م والاعتراف بالسيادة المملوكية وتعهد بأن يحسن الجوار مع نواب السلطنة المملوكية ، وإلا يتعرض بسوءٍ ولا بضررٍ لجزيرة قبرص(٩) .

وبينما كان إينال يقوم بالمحافظة على « حرمة ناموس الملك » بحربه التأديبية ضد القرمانيين كان محمد الثانى يعمل بدوره على تصفية الإمارات الأناضولية الباقية . فَضُمّتِ

---

(٦) Hammer: Histoire de l'empire ottoman, trad. J. J. Hellert, vol, II, p. 369-Babinger; Mahomet II Le Conquerant et son temps (1432-1441) , trad del Medico, Paris 1954, pp. 91-92, 135.

(٧) منتخبات من حوادث الدهر ، ص ٢٢١ ــ ابن إياس : صفحات لم تنشر ، ص ٢٣

(٨) منتخبات من حوادث الدهور ،ص ٢٧٤ ، ٢٧٧ ــ ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٦ ــ ابن إياس : صفحات لم تنشر، ص٣٩ــ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

(٩) مخطوط رقم ٤٤٤٠ ، ورقة ١١٩٥ ــ ١١٩٨ [رد إينال على خطاب إبراهيم بك بن قرمان المؤرخ فى ٢٠ من جمادى الآخرة ٨٦٢ هـ] ــ منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٣١٨ــ ابن اياس : صفحات لم تنشر ، ص ٥٥ .

فيما يخص العلاقات بين إبراهيم بك وقبرص انظر :

الدكتور سعيد عاشور . قبرص والحروب الصليبية ، ص ١٦٢ ــ ١٦٤

إمارات كرمان وآيدين وهنتشا وطرابيزون وسينوب [١٠]. ولم يبق أمامه لكى ينتهى من مهمة توحيد آسيا الصغرى سوى إمارتى قرمان ودلغادر .

وما أن انتهى من ضم بلاد البلقان وشبه جزيرة المورة حتى وجد أن الوقت قد حان ليجهز على القرمانيين . ففضلًا عما دأبوا عليه من طعن العثمانيين فى ظهورهم وهم يحاربون بالجبهة الأوروبية ، فإن إبراهيم بك الذى طالت أيامه فى الإمرة وازدادت عظمته قد وجدت فيه البابوية والبنادقة منافسا خطيرا لمحمد الثانى فأطلقوا عليه لقب قومان الكبير Grand Qaraman تشبيهاً له بالسلطان العثمانى . وعمل البابا كالكستس الثالث وبيوس الثانى على حثّه على الاشتراك فى آخر مشروعاتهم الصليبية ضد العثمانيين. وجاءت الفرصة المواتية إلى محمد الثانى عندما تُوفى إبراهيم بك فى عام ٨٦٨هـ/١٤٦٤م ودفعته كراهيته للعثمانيين إلى حرمان أولاده من زوجته الأميرة نفيسة عمة محمد الثانى من حقهم فى عرش الإمارة وفضّل عليهم ابنه إسحق بك الذى رُزق به من زوجةٍ ثانية ، فَفَرّ بقية اخوته إلى استانبول يطلبون العون والمساعدة[١١] .

فى هذا العام الذى قرر فيه محمد الثانى انتزاع إمارة قرمان بحجة التدخل لحماية حقوق أولاد عمته كشف النقاب عن سياسة العثمانيين الحقيقية إزاء المماليك ، فانتهت سياسة المداراة وبدأت سياسة الجفوة والتربص . فالمماليك يعلمون تمام العلم أن الخطوة التالية لذلك هى التهام إمارة دلغادر والقضاء على النفوذ المملوكى بآسيا الصغرى . وبدأ

---

(١٠) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤

Hammer : op. cit, II, p. 369, III, pp. 69-71, 79-85-Babinger: op. cit, pp.19-29-Kritovoulos: History of Mehmed the conqueror, translated from the Greek by Charles. T. Riggs, Princeton, 1954, pp. 163-165, 165-168,173-175.

(١١) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥٧٧ ، ٥٨١ ـ ٥٨٢

Hammer: III, pp. 115-122 - Babinger: p. 19,221-222,223, 224-225,281-Alderson : The structure of the Ottoman dynasty, Oxford 1956, see table LVII (allianus with Karamangullari) .

محمد الثانى تدخله فى شئون إمارة قرمان بإرهاب السلطنة المملوكية لمنعها من مدّ يد المساعدة لإسحق بك . فجاء قاصده إلى القاهرة فى ٢٨ رمضان ٨٦٨هـ/٤ يونيو سنة ١٤٦٤م يحمل مكاتبته إلى خشقدم التى أغفل فيها ذكر ألقابه السلطانية واستهلّها بمخاطبته بلقب المقر الكريم وهو اللقب الذى جرى ديوان الإنشاء المملوكى على تلقيب سلاطين العثمانيين به باعتبارهم دون سلاطين المماليك مرتبة . هذا إلى أن القاصد العثمانى امتنع عن تقبيل الأرض أمام خشقدم حسبما جرت به التقاليد(١٢) . وكان هذا إشعاراً واضحاً بتحول ميزان القوى وإنذاراً لم يخف أمره . ورد خشقدم على هذه الإهانة بالمثل فرفض إرسال قاصد من قبله رداً على هذه السفارة وطلب من القاصد العثمانى أن يغادر القاهرة حاملاً معه جوابه والهدايا التى رد بها هدايا محمد الثانى(١٣) .

وفى العام التالى أغار محمد الثانى على أمارة قرمان . ولم يتمكن اسحاق بك من الصمود إذ أن خشقدم توانى عن مساعدته ، وانتهى أمره بالتجائه إلى حسن الطويل وتنصيب أخيه الأكبر بير محمد مكانه على عرش الإمارة . وكان حسن الطويل أمير قبيلة الشاه السوداء قد غدا قوة كبرى فى هذه المنطقة وامتدت مملكته من إمارة قرمان غرباً حتى خراسان شرقاً ورأى فى مساعدته لإسحق بك فرصة للعمل على زيادة رقعة مملكته على حساب الدولتين المملوكية والعثمانية . وعلى الرغم من أن خشقدم كان يخشى قوته الصاعدة فقد تغاضى مؤقتاً عن أطماعه ، وقبل التحالف معه ضد محمد الثانى الذى يمثل خطراً مزدوجاً على كليهما وتقدم إسحق بك تسانده قوات حسن الطويل وتمكن من استعادة بعض المدن القرمانية واتخذ من مدينة لارند مقراً له (١٤) .

---

(١٢) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢ ـ فيما يختص بلقب المقر الكريم. انظر الدكتور حسن الباشا : الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ ، من ٤٨٩ ـ ٤٩٤ .

(١٣) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٤٧٣ .

(١٤) نفس المرجع السابق ، ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤ . ٤٨٣ ـ ٤٨٤ ، ٤٨٦ ـ ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ ـ ٥٠١ ، ٥٠٧ ـ ٥٠٨ ، ٥١٣ ـ الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر . بحث مستخرج من المجلة التاريخية المصرية ، =

وقابل محمد الثانى هـذه المناورة بأن مد أصابعه إلى إمارة دلغادر التى تربطه بأمرائها صلة النسب والقرابة وأحس خشقدم بتحول الأمير الدلغادرى أرسلان بك عنه نحو العثمانيين .

وخشى خشقدم أن ينتهى الأمر بالتهام إمارة دلغادر وبالقضاء على السيادة المملوكية فى آسيا الصغرى . فنشطت الدبلوماسية المملوكية لإجبار العثمانيين على وقف عملياتهم الحربيـة بآسيا الصغرى والإسراع بجيوشهم عـبر البوسفور إلى الجبهة الأوروبية واتجهت أنظارها نحو البندقية مستغلة صداقتها لها وحرصها على مصالحها التجارية معها ، وتحفزها للقضاء على الخطر العثمانى الذى أصبح يهدد مياهها الإقليمية ولم يغب هذا الخطر عن محمد الثانى فاتجه بدوره إلى تأمين الجبهة الأوروبية عارضا الصلح على البنادقة حتى يتفرغ للمماليك وقد أصبحت الحرب معهم قاب قوسين أو أدنى . واقتضى الأمر أن يتظاهر خشقدم بالرغبة فى إعادة علاقات المودة مع محمدالثانى فغادر القاهرة إلى استانبول قاصد مصرى فى ٢٧ رجب ٨٦٩ هـ /٢٥ مارس ١٤٦٥م رداً على السفارة العثمانية السابقة إلا أنه عاد فى ربيع الأول من العام التالى / أكتوبر ونوفمبر ١٤٦٥ يخبر بأن ابن عثمان باق على عدائه ويحمل معه جواباً على مكاتبة خشقدم يكفى أن تعلم أنها على قول المعاصرين لم تنصف السلطان المملوكى من حيث عدم ذكر ألقابه السلطانية والإصرار على مخاطبته بلقب المقر الـكريم(١٥) . وفى نفس الوقت مهد البنادقة المقيمون بالاسكندرية للاتصال بين خشقدم وحكومتهم ، ووصل السفير للمملوكى إلى البندقية فى نوفمبر ١٤٦٥ فى الوقت الذى كانت فيه مفاوضات الصلح دائرة مع السفير العثمانى . وقد وجدت البندقية فى العرض المملوكى ما يحقق مصالحها فبادرت بقطع مفاوضات الصلح مع العثمانيين(١٦) . وكان هذا إنذاراً كافياً

= المجلد الرابع العدد الأول ، مايو ١٩٥١ ، ص ٢٠٢

(١٥) منتخبات من حوادث الدهور، ص ٤٩٥ ، ٥٠٨ ــ ٥٠٩ ــ مخطوط رقم ٤٤٤٠، ورقة٧٦ب ــ٧٨ب[خطاب محمد الثانى إلى خشقدم].

(١٦) Babinger : p. 294.

لمحمد الثانى اضطره إلى التريث والتمهل فى إتمام توحيد آسيا الصغرى حتى لا يعطى الفرصة للمماليك والبنادقة للإطباق عليه . وانتهى الأمر بتجميد الموقف بين الدولتين مؤقتا .

وأتاح هذا لخشقدم أن يسترد أنفاسه ، فأخـــذ يدبر أمر التخلص من الأمير الدلغادرى أرسلان بك الذى خرج عن طاعته ومالأ العثمانيين ، ووجد فى أخيه شاه بوداق الذى كان لاجئا بمصر منذ أيام الأشرف إينال ، ما يحقق أهدافه فخلع عليه خلعة الإمارة وغادر القاهرة وبصحبته أحد الفداوية الذى انقض على ارسلان بك وهو يخطو داخل جامع مرعش ليؤدى صلاة الجمعة(١٧) .

وقذف محمد الثانى فى المعركة بأخيه الشاه سوار وكان لاجئا باستانبول منذ وفاة أبيه سليمان بك وتمكن شاه سوار من أن يسبق أخاه إلى عرش الإمارة ثم أتبع ذلك بمطاردته(١٨) . وأجبر خشقدم مرة ثانية على الاتصال بمحمد الثانى رجاء الوصول إلى حل سلمى يحول دون نشوب القتال بين الدولتين . فأرسل قاصداً إليه فى عام ٨٧١ هـ ١٤٦٦ م يطلب منه عدم التدخل فى شئون إمارة دلغادر(١٩) . هذا فى الوقت الذى كان محمد الثانى يفكر فى سبب للتحرش به ، فوصل قاصد من قبله إلى القاهرة فى

---

(١٧) النجوم الزاهرة ، طبعة W. Popper ، ج ٧ ، ص ٧٣٧ ــ منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥١٣ ــ ٥١٤ .

Artin : Zul - Kadr et Bab - Zoueleh, dans B. I. E., 2e sér, no. 6, Le Caire 1886, p. 171 - Babinger : p. 490.

(١٨) النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة ، ج ٧ ، ص ٧٣٩ ، ٧٤٧ ــ منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥١٨ ، ٥٢١ ــ ٥٢٢ .

Artin : op. cit. p. 178 - Babinger : Ibid.

(١٩) Wiet : Deux princes, Annxe I, p. 147.

نفس العام يطلب السماح له بعمارة عين عرفة وقنوات المياه بمكة[٢٠]. وواضح أن هذا الطلب في هذا الوقت بالذات ليس الدافع إليه الرغبة في عمل الخير ، وإنما يخفى وراءه تطلع العثمانيين نحو بلاد الحجاز والتمهيد لذلك بلفت أنظار المسلمين إليهم . وكان طبيعيا أن يرفض خشقدم ، إذ أن الدولة المملوكية كانت تضع في المقام الأول من سياستها المحافظة على سيادتها الفعلية على الحرمين الشريفين .

واضطرت الدولة المملوكية إلى التدخل الحربي لإعادة هيبتها والمحافظة على حقوقها في إمارة دلغادر . وبدأت الحرب المعروفة بحرب شاه سوار وهي التي جُرّدت فيها ضده أربع حملات كبرى في عام ٨٧١هـ/١٤٦٦ (في عهد خشقدم) وفي أعوام ٨٧٢/١٤٦٧ و ٨٧٣ / ١٤٦٨ و ٨٧٥ / ١٤٧٠ (في عهد قايتباى) . وكانت الهزيمة مصير الحملات الثلاث الأولى وعودة العساكر المملوكية على أسوأ حال ، هذا عدا الهزائم التي لحقت بالقوات الحلبية[٢١] . أما الحملة الرابعة ، وهي التي تولى قيادتها يشبك من مهدى ، فقد انتهت في أوائل عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ بالقبض على شاه سوار في قلعة زمنطو (قلعة Tsamandus البيزنطية ، وتسمى حاليا بقلعة العزيزية) والعودة به أسيراً إلى القاهرة حيث شنق على باب زويلة . وقبل عودة القوات المملوكية ، نَصَّبَت على عرش الإمارة أخاه شاه بوداق الموالى لمصر[٢٢] .

---

(٢٠) Wiet : Ibid - Babinger : p. 491 - Laoust : Les gouverneurs de Damas sous les mamlouks et les primiers ottomans, trad. des Anales d'Idn Tulun et d'Ibn Gum'a, Damas 1952, p. 31,32,33.

(٢١) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥٣٠ ـ ٥٣١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٨ ، ٦٠٣ ـ ٦٥٠ [الحملة التي أرسلها خشقدم] ، ص ٦١٩ ـ ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٥، ٦٢٩ ـ ٦٣٠ ، ٦٣٣ ـ ٦٣٥ [٨٧٢ هـ] ، ص ٦٣٦ ـ ٦٣٧ ، ٦٤١ ، ٦٤٤ ـ ٦٤٥ ، ٦٤٥ـ٦٤٨، ٦٧٢ ـ ٦٧٣ ، ٦٧٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٧ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧١٤ ـ ٧١٦ [٨٧٣ هـ] ـ ابن إياس : طبعة استامبول ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٧ ، ١٠ ـ ١١ ، ١٢ ـ ١٣ [٨٧٢ هـ] ، ص ١٤ ، ١٩ ٢١ ـ ٢٢ ، ٢٤ ـ ٢٦ ، ٢٧ [٨٧٣ ، ٨٧٥ هـ] .

(٢٢) تاريخ يشبك الظاهرى، مخطوط استانبول رقم ٣٠٥٧، ورقة ١٢١ب ـ ١٣٨ ا، =

هذا وجدير بالذكر أن هذا الانتصار على شاه سوار لم يوفق إليه المماليك إلا بعد نجاح السفارة التى أرسلها يشبك من مهدى إلى حسن الطويل فى إقناعه بالكف عن مساعدته(٢٣). وكذلك بعد اتفاق قايتباى ومحمد الثانى على تقاسم النفوذ ، فينفرد العثمانيون بإمارة قرمان وينفرد المماليك بإمارة دلغادر . وقد دفعهما إلى ذلك اتفاقهما فى الرأى على مواجهة أطماع حسن الطويل التوسعية فى أعالى الفرات وفى آسيا الصغرى . ففى المعسكر الآخر ، كانت إمارة قرمان مسرحاً للقتال بين بير محمد يناصره العثمانيون ، وأخيه إسحق بك يناصره حسن الطويل الذى واصل قايتباى سياسة خشقدم إزاءه ومدّه بالمساعدة والمعونة . ومع هذا فما إن أحسّ بير محمد باستقرار عرش الإمارة نوعاً ما حتى دفعته كراهية القرمانية للعثمانيين التى تجرى فى دمه ، إلى التمرد على محمد الثانى والتطلع إلى محالفة البنادقة ضده . إذ كان يخشى ضم الإمارة نهائيا إلى الحكم العثمانى وزوال استقلالها . وإزاء هذا الخطر ، فقد اضطر محمد الثانى إلى عبور البوسفور ، فدخل قونية فى عام ٨٧٢/١٤٦٨ وسارع بير محمد بالفرار بمجرد اقتراب القوات العثمانية منها ، وأعقب ذلك بضم الإمارة نهائيا إلى الدولة العثمانية وتولية ابنه مصطفى شلبى والياً عليها . ثم أخذت القوات العثمانية تقضى على جيوب المقاومة التى تزعمها كُلٌّ من إسحق بك وبير محمد الذى لجأ بدوره إلى حسن الطويل . واستمرت مقاومة الأميرين بضع سنوات بفضل مساعدة حسن الطويل لهما(٢٤) .

وهكذا فشلت الدولتان فى القضاء على الخارجين على طاعتهما من أمراء التركمان والقرمانية والدلغادرية وأجبرتهما الظروف على التسليم بالأمر الواقع وتقاسم النفوذ.

نسخة ١٥٤٠ ب ـ ١١٧٢ ا ـ ابن اياس ، طبعة استانبول ج ٣ ، ص ٥١٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٠٩ ، ٦١ ، ٦٢ ـ ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ـ ٦٨٠ ، ٦٩٠ ، ٧٠ ـ ٧١ ، ٧٢٠٧٥ .

(٢٣) تاريخ يشبك الظاهرى ، مخطوط استانبول ، ورقة ١٣٨ ا ـ ١٥٤٠ ب [سفارة قاضى العسكر الشمس ابن أجا إلى حسن الطويل]

(٢٤) Hammer ; III, pp. 137-138, 140-Babinger : pp. 325-326;337.

فى هذا الوقت أرسل يشبك من مهدى ، قائد الحملة المملوكية الأخيرة فى عام ٨٧٦/ ١٤٧١ـ ١٤٧٢ قاصداً إلى محمد الثانى يطلب منه الكف عن مساندة شاه سوار والوقوف موقف الحياد فى النزاع بينه وبين أخيه شاه بوداق . ونجحت هذه السفارة وردّ محمد الثانى قصّاد شاه سوار الذين كانوا موجودين باستانبول وقتذاك يستنجدون به . ثم نشطت الدعاية المصرية تذيع فى ربوع إمارة دلغادر تخلّى السلطان العثمانى عن مساعدته وعدم رضائه عنه ، فانفض من حوله أمراء التركمان حتى اضطر إلى الاستسلام(٢٥). وأتاح انتصار محمد الثانى على البنادقة فى عام ١٤٧٠ واستيلاؤه على جزيرة نجريون تفرغه للقضاء على مقاومة الأمراء القرمانية ثم محاربة حسن الطويل وخاصة بعد أن علم باتصاله بالبنادقة بقصد التحالف معهم للإطباق على العثمانيين فى آسيا وأوروبا فى وقت واحد . وتمكن محمد الثانى من إيقاع الهزيمة بإسحق بك أمام مدينة العلايا فى عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ ، ثم اتجه بقواته لملاقاة حسن الطويل الذى حلّت به الهزيمة بالقرب من ترجان Terdjan فى أول ربيع الأول ٨٧٨هـ / ٢٦ يوليو ١٤٧٣(٢٦). وبعد ذلك ببضعة أشهر حلّت به هزيمة ثانية على يد المماليك(٢٧).

* * *

وعادت الدولة العثمانية مرة ثانية إلى سياسة المداراة والتظاهر بالعلاقات الودية ، إذ شُغل محمد الثانى بحرب البنادقة وهى الحرب التى ملأت الفترة من عام ١٤٧٤ حتى

---

(٢٥) تاريخ يشبك الظاهرى، مخطوط استانبول ورقة ١٣٨ ا ، ١٦٧ ا ـ ١٦٧ ب ـ ابن اياس، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٨٢ .

(٢٦) Artin : p. 179,180.
Hammer.: III, p. 141.; 142-144,151-168,172-185- Badinger : p. 325,327; 361 - 363,364, 370 - 371-Grousset : Histoire de l'Asie, vol. III, Paris 1922, p. 127; 128,129,130, 131 suiv.

(٢٧) ابن اياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ـ ٨٨ ـ الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ، ص ٢٠٣

عام ١٤٧٩ وانتهت بعقد معاهدة الصلح معهم . ويكفينا دليلا على ذلك أنه لم تكد تنتهى هذه الحرب حتى اتجه محمد الثانى بقواته فى عام ١٤٨٠ إلى آسيا الصغرى وعاد إلى التدخل فى شئون إمارة دلغادر تمهيداً لضمها وإتمام توحيد آسيا الصغرى(٢٨).

ولم تغب عن قايتباى نوايا محمد الثانى ، وكان على يقين من أن الأمور مع العثمانيين لم تسوّ بعد ، ولا بد من القتال فى خاتمة المطاف . ومن ثم كانت رحلته التفتيشية إلى آسيا الصغرى وأعالى الفرات فى عام ٨٨٢ هـ / ١٤٧٦ م وهى الرحلة التى عمل أثناءها على عمارة القلاع والحصون وشحنها بالحاميات والأسلحة وإصلاح طرق البريد وهو أمرٌ على جانب كبير من الأهمية الحربية(٢٩).

وقد تحقق ظن قايتباى ، فلم تعوز الوسيلة محمد الثانى ، إذ كان لا يزال يوجد لديه باستانبول رصيد من الأمراء الدلغادريين اللاجئين إليه ، وهما علاء الدولة بك ، وعبد الرزّاق بك أصغر أولاد سليمان بك . وقذف محمد الثانى بعلاء الدولة الذى تمكن فى عام ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ بمساعدة القوات العثمانية من طرد أخيه شاه بوداق والتربع على عرش الإمارة والاعتراف بالسيادة العثمانية (٣٠). ثم تحرك محمد الثانى وعبر البوسفور بجيشه إلى آسيا الصغرى ليكون على مقربة من تطور الحوادث . إلا أنه توفى مسموما فى ٤ مايو سنة ١٤٨١ بالقرب من بلدة جبزة Ghebzé وقد اتهم ابنه بايزيد بدس السم له ، إذ أن العلاقات بينه وبين أبيه لم تكن طيبة فى الفترة الأخيرة نظراً لما يقال من أن الصدر الأعظم كان قد أقنع محمد الثانى بتولية عهده لابنه جم (٣١).

---

(٢٨) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والأستاذ توفيق اسكندر ، ص ١٣٩ ــ ١٤٠ .

Babinger:p. 490.

(٢٩) Devonshire:Rélation d'un voyage du sultan Qaitbay en Palestine et en Syrie, trad, de l'arabe, in B.I. F. A. O., T.xx, Le Caire, 1921, pp. 1-40 - Wiet:L'Egypte arabe, pp. 594-595.

(٣٠) Babinger:p. 490-Artin p. 181.

(٣١) Babinger: pp. 491_492,493_494

وانتظر قايتباى لما عس أن يسفر عنه تطور الحوادث داخل الدولة العثمانية . فلم يلبث أن ثار النزاع بين الأخوين بعد أن أعلن جم نفسه سلطاناً للدولة العثمانية واتخذ مدينة قونية مقراً له ، وأقام الخطبة وضرب السكة باسمه . إلا أنه اضطر بعد هزيمته أمام قوات أخيه فى موقعة يني شهر إلى الفرار ومعه والدته وزوجته إلى سورية . ولم يتمكن علاء الدولة ابن دلغادر من تنفيذ أوامر بايزيد من القبض عليه ومنعه من الالتجاء إلى الدولة المملوكية(٣٢)، فوصل القاهرة فى شعبان ٨٨٦هـ/سبتمبر ـ أكتوبر سنة ١٤٨١(٣٣).

وحاول قايتباى فى بادئ الأمر ، التوفيق بين الأخوين على أساس تقسيم السلطة بينهما فيحكم جم الولايات الأسيوية ويحكم بايزيد الثانى الولايات الأوروبية . إلا أن بايزيد ردّ على ذلك بعبارته المشهورة (لا أرحام بين الملوك). ومن ثم أخذ قايتباى يعد العدة لأمداده بالمال والجند لرحيله إلى آسيا الصغرى للحصول على حقه بحد السيف ، على الرغم من عدم موافقة أمراء المماليك خشية أن يؤدى ذلك إلى نشوب القتال بينهم وبين العثمانيين ، والعهد قريب بالهزائم التى حلّت بهم على يد شاه سوار وحسن الطويل قبل انتصارهم الأخير عليهما(٣٤)، وعلى الرغم من خلو الخزائن من

---

(٣٢) Thusane : Djem-Sultan (1459-1495), Paris 1892, pp. 39-40-Alderson : pp.6-7, 38-39.

(٣٣) Hammer : III, p. 347 - Thuasne : pp. 47-48, 41-50— Wiet : Deux princes, pp. 139-140—

ابن اياس ؛ طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٣٤) ابن اياس ، استانبول ، ج٣ ، ص ١٨٦ ـ الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ، ص ٢٠٤ .

Wiet : Deux princes, 140-141 —Hammer : III, pp. 351-356-Thuasne : pp. 50—51

[يذكر نقلا عن المراجع البندقية أن قايتباى أمده بمبلغ ٤٠ الف دوكاه وقوة عسكرية ، كما قدم له كل من نائب دمشق ونائب حلب ١٠ آلاف دوكاه]

الأموال لكثرة ماصرف على التجاريد السابقة(٣٥). إلا أن الظروف السياسية اقتضت دفع العثمانيين فى غمار الحرب الأهلية ، حتى تتاح لقايتباى فرصة إبعادهم عن التدخل فى شئون إمارة دلغادر ، وتثبيت السيادة المملوكية عليها .

وغادر جم القاهرة تاركاً بها والدته وزوجته ثم ابنه عليا الذى وُلد فيما بعد (٣٦) . وجاءت الأمور على غير مايشتهى قايتباى ، فحلّت به الهزيمة وأجبرته الظروف فى هذه المرة على الالتجاء إلى فرسان الاسپتارية بجزيرة رودس فى ٢٩ يوليو ١٤٨٢ ، بقصد العبور منها إلى أوروبا ومتابعة الحرب ضد أخيه معتمدا على أخواله المجريين . فأمّه چچك Gigek كانت أصلاً مسيحيه تمت بصلة القرابة إلى ملك المجر ما تياس كورڤانوس Mathias Corvinus أُخذت أسيرةً عندما اجتاح والده محمد الثانى بلاد الصرب فى عام ١٤٥٩(٣٧). ولكن جم ، الذى لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين عاما أخطأ التقدير والحسبان فجزيرة رودس كانت هدفاً استراتيجياً لمحمد الثانى بعد انتهائه من حسم إمارة قرمان المقابلة لها وخاصة بعد الدور الذى قام به فرسان الجزيرة من مساعدة البنادقة والأمراء القرمانية الخارجين على طاعته فى عام ١٤٧٣ ولم تكن مفاوضات الصلح التى قام بها الأمير جم بتكليف من أبية بعد أن ولاه إمارة قرمان سوى ذرٍّ للرماد فى العيون حتى ينتهى محمد الثانى من حربه مع البنادقة وهى الحرب التى انتهت بعقد الصلح معهم فى عام ١٤٧٩(٣٨). وإذا كان الفرسان قد تمكنوا من صد هجمات

---

(٣٥) بلغ مجموع ما أنفقه قايتباى على التجاريد التى أرسلها ضد شاه سوار وحسن الطويل منذ عام ٨٧٢ هـ حتى عام ٨٧٧ هـ مبلغ ثلاثة ملايين وسبعمائة وسبعين ألف دينار . انظر تاريخ الملك الأشرف قايتباى ، مخطوط رقم ٦١ تاريخ ، دار الكتب ، ورقة ٦ ا ـ ١٥ ب .

(٣٦) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ [الاحتفال بختان ابنه على مع ختان محمد بن قايتباى فى رجب ٨٩٥ هـ] ، ص ٢٨٦ [وفاته فى ذى الحجة ٨٩٧ هـ] .

(٣٧) H ammer : III, pp. 351-356 — Thuasne:p. 2,52-56 — Alderson:See talble xxvII (Mehmed II and his family).

(٣٨) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

الأسطول العثمانى على جزيرتهم فى ذلك العام وفى العام الذى تلاه فإنها لم تنج من غزوٍ محققٍ إلا بوفاة محمد الثانى فجأة على الشاطىء المقابل لها بآسيا الصغرى(٣٩).

فى هذا الوقت العصيب جاءت الأقدار بجم سلطانا ووجد دوبوسون رئيس الفرسان الاسپتارية فى التحفظ عليه خير فرصة لمنع العثمانيين من غزو الجزيرة ، واضطر بايزيد الثانى إلى مفاوضته فى عقد الصلح والرضوخ لشروطه . فقبل مرغماً أن يدفع له سنويا مبلغ ٤٥ ألف دوكاه فى مقابل الاحتفاظ به ومنعه من استئناف القتال ضده. واقتضت خطة دوبوسون نقل جم فى سبتمبر ١٤٨٢ إلى ڤيلا فرانكا أحد بيوت الفرسان الاسپتارية بجنوب فرنسا ، بعيداً عن أعين العثمانيين ومناوراتهم لاستعادته(٤٠) .

وما أن اطمأن بايزيد الثانى مؤقتاً باتفاقه مع دوبوسون حتى اتجه لمحاسبة المماليك على موقفهم السابق من أخيه والعمل على تنفيذ سياسة أبيه من إتمام توحيد آسيا الصغرى تحت الراية العثمانية والقضاء على النفوذ المملوكى بها . وزاد فى توتر العلاقات أن قايتباى قَبِل تجديد معاهدة الصلح مع فرسان الاسپتارية فى ٢٨ اكتوبر ١٤٧٩ عند ما شعروا بنوايا محمد الثانى العدوانية إزاء جزيرتهم(٤١) . وهم بهذا يطبقون مبدأً رئيسيًّا من سياستهم التى أملاها عليهم موقع الجزيرة بين العثمانيين والمماليك ومطمع كل منهما فى الاستيلاء عليها . فقد درجوا على المبادرة بعقد الصلح مع إحدى الدولتين فى الوقت الذى يكونون فيه على وشك الحرب مع الدولة الثانية حتى يتيح لهم ذلك

---

(٣٩) Thusne:pp.11-18—Babinger:p. 366.

(٤٠) Hammer : III, pp. 356-357—Thusne:pp. 54-47,57, 67-69.

(٤١) Thuasne: p. 18—Babinger: p. 466.

فرصة التفرغ لمواجهة الخطر من جانب واحد(٤٢) . وواضحٌ أيضا أن استيلاء العثمانيين على الجزيرة يمثـل خطراً موجهاً إلى المماليك وخاصة بعد وصول العثمانيين بممتلكاتهم إلى الطرف الجنوبى من آسيا الصغرى، فضلًا عما يثير ذلك فى نفوس المماليك من شجًى بسبب فشلهم من قبل فى غزوها . هذا بالإضافة إلى ما شاع فى القاهرة من أن قايتباى راقت فى عينه الهدية الحافلة التى أرسلها أحد ملوك الهنـد على يد بعض تجارهم إلى السلطان العثمانى والتى احتاط عليها نائب جده وأحضرها إلى السلطان بالقاهرة ، وكان من بينها خنجر ثمين(٤٣) . وإن صح هـذا القول فإنه لا يعتبر سبباً كافياً يبرر نشوب الحرب بين الدولتين ، ومن الجائز أن يُفسَّر تصرف قايتباى هذا فى ضوء العلاقات العدائية القائمة فعلًا قبل ذلك بينه وبين محمد الثانى وابنه بايزيد الثانى .

وكيفما كان الأمر فما أن حلّ صيف عام ١٤٨٣ ، وهو الوقت المناسب للعمليات الحربية فى هـذه المنطقة الجبلية من آسيا الصغرى حتى تحرك علاء الدولة بن دلغادر وخرج على طاعة الدولة المملوكية وأغار على مدينة ملطية تسانده القوات العثمانية ، فخرجت العساكر المملوكية لرد عدوانه(٤٤) . وهكذا بدأت الحرب المملوكية ـ العثمانية التى انتهت بعقد الصلح بينهما فى عام ١٤٩١(٤٥) . وانتصر المماليك فى هذه الحرب

---

(٤٢) تطبيقا لهذه السياسة عقد فرسان الاسبتارية الصلح مع مصر فى عام ١٤٠٣ و١٤٢٧ و ١٤٤٥ . انظر :

Darrag : E'Egypte sous le regne de Barsbay, chap. VII (La conquête de Chypre), chap. IX (La politique de Barsbay en Mediterranée).

(٤٣) ابن اياس، طبعة استامبول ، ج ٣ ، ٢١٠ ـ الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٥ .

Thuasne : p. 142.

(٤٤) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ ـ Laoust p. 34

(٤٥) فيما يختص بهذه الحرب انظر :

الدكتور زيادة : نفس المقال ص ٢٠٥ ـ ٢٠٩

C. I. A., Egypte, I, pp. 549-550 et notes — Wiet : L'Egypte arabe, pp. 598-694— Laoust- pp. 35.36,37,38.

انتصاراً لم يكن يتوقعه المعاصرون ، وكان موضوع جم من غير شك أحـد العوامل الرئيسية فى هزائم العثمانيين المتتالية ، إذ أن بايزيد كان يحارب والخوف يتملكه على عرش السلطنة ، فضلًا عن عوامل أخرى ليس هنا مجال إثباتها .

* * *

ولنترك موضوع الحرب المملوكية ـ العثمانية ، لنتابع مأساة جم وما أثارته من صراع دبلوماسى عنيف بين العثمانيين من جهة والمماليك من جهة ثانية ، وبين القوى الأوروبية التى ارتبطت عداوةً أو صداقةً بهاتين الدولتين الإسلاميتين أو ببعضها البعض ، وهى فرسان الاسپتارية بردوس، والمجر ، والبندقية ، ونابلى ، وفلورنسة ، ودوقية ساڤوى ، وفرنسا ، والبابوية . ومن هنا كان الاختلاف الشديد فى موقف هذه القوى إزاء جم . فبعضها كان يسعى لتسلّمه لاتخاذه ذريعةً لشن حرب تحريرية ضد العثمانيين بأوروبا . والبعض الآخر كان يتآمر لتسليمه إلى المماليك لتحقيق مصالحه الخاصة . وفريق ثالث كان يعمل جاهداً على التحفّظ عليـه حيث يقيم بجنوب فرنسا أو بروما بعد نقله إليها كوسيلة من وسائل تهديد العثمانيين تجنباً لحربهم وحرصاً على المحافظة على سلامة بلاده من الغزو . وفشلت البابوية بسبب تضارب مصالح هذه القوى فى التوفيق بينها واغتنام هذه الفرصة لتكوين حملة صليبية عامة ضد العثمانيين والإطباق عليهم فى الجبهة الأوروبية فى الوقت الذى تتوالى فيـه الهزائم عليهم على يد المماليك بآسيا الصغرى .

وفى الفترة ما بين عام ١٤٨٢ ، وعام ١٤٨٨ كان مركز الثقل السياسى لهذه المشكلة الدولية موزعاً بين ردوس ، وروما ، وباريس ، فهذه العواصم الثلاث كان بيدها وحدها حق تقرير مصير جم ، وإليها اتجهت مجهودات جميع القوى المتنازعة عليه . ثم اتجهت الدبلوماسية الدولية نحو القاهرة فى عامى ١٤٨٨ ، ١٤٨٩ ، وعلى الأخص قبيل الانتصار الثانى للمماليك على العثمانيين تحت أسوار أدنه وطرسوس فى ١٥ أغسطس ١٤٨٨ ، وقبيل بدء المعركة الثالثة بينهما فى عام ١٤٩٠ . فانتصار المماليك النهائى أصبح أمراً

كثير الاحتمال وبذل قايتباى بدوره جهداً كبيراً مع هذه الدول الأوربية لاستعادة جم استعداداً للجولة الأخيرة . وليس أدل على ذلك من أن القاهرة شهدت فى هذين العامين استقبال عدة سفارات من المجر وفرنسا ودوقية سافوى وفلورنسة والبندقية والبابا أنوسنت الثامن وأيضاً العثمانيين الذين جاء رسولهم بعرض الصلح . وما أن عُقد الصلح بين المماليك والعثمانيين فى عام ١٤٩١ حتى خف الاهتمام بأمرجم وفقد موضوع استعادته ما كان له من أهميه عظيمة .

وقد أوضحت لنا الدراسات التى قام بها فون همر Von Hammer وتوازن Thuasne سياسة العثمانيين وسياسة هذه القوى الأوربية إزاءجم . ولكن سياسة قايتباى فى هذا الصدد لم تنل منهما مثل هذا القدر من العناية نظراً لبعدها عن دراسة عصر قايتباى دراسة وافيةً شاملةً . ويجمل بنا ، أن نوجزهنا عرض دراستهما حتى يُلقى ذلك ضوءً كافياً يمكننا من تفهم سياسة قايتباى.

أمّا بايزيد الثانى فقد سيطر موضوع جم على سياسته الخارجية سيطرة تامة ، وأدّى ذلك إلى هزيمته أمام المماليك ، وإلى توقف موجة الفتوحات العثمانية فى أوروبا مدة طويلة(٤٦) . وما كاد جم يصل إلى مقر إقامته حتى نشط بايزيد للعمل على استعادته أو للتأكد ، على أقل تقدير ، من عدم وقوعه فى يد أحد أعدائه . ففى عام ١٤٨٣ أرسل سفيره حسين بك إلى ردوس حاملا إلى فرسان القديس يوحنا ، المبلغ المتفق عليه وهدية عزيزة عليهم ،ألا وهى اليد اليمنى لراعيهم القديس يوحنا حتى يسمحوا له بمواصلة السفر إلى جنوب فرنسا للاطمئنان على وجود جم تحت حراستهم. وفى فرنسا حاول السفير العثمانى الحصول على وعدٍ من لويس الحادى عشر بالمحافظة على وجود جم فى بلاده والامتناع عن تسليمه لأحـدٍ من أعدائه مقابل أن يتعهد له بايزيد الثانى بدفع مبلغ كبير من المال كل عام وأن يقدم له جميع مخلفات القديسين الموجودة بالقسطنطينية . ولكن لويس الحادى عشر رفض التقيد بمثل هذا الوعد ،

---

(٤٦) Alderson : p. 6. n.4.

على الرغم من نزعته الدينية وهو يعانى مرض الموت . وبعد وفاته جَدَّد السفير العثمانى هذا العرض على ابنه شارل الثامن ، إلا أن نصيبه كان الرفض أيضاً(٤٧) . وحاول بايزيد محاولات أخرى مع كل من البندقية فى عام ١٤٨٣ ومع البابا أنوسنت الثامن بعد نقل جم إلى روما فى عام ١٤٨٩ ومع خليفته إسكندر بورجيا بعد عام ١٤٩٢ ، وكان الفشل نصيب هذه المحاولات جميعها(٤٨) .

ووجدت المجر فى ذلك فرصة طيبة للهجوم على العثمانيين واستعادة ما انتزعته من بلادها ، فى الوقت الذى يوجد فيه الجزء الأكبر من قواتهم العسكرية بآسيا الصغرى تحارب المماليك . وكان لها فى قرابة الدم التى تربطها بجم وفى رغبته التى أبداها بمجرد وصوله إلى فيلا فرانكا من مواصلة السفر إلى المجر لمواصلة حربه مع أخيه ما يقوى مطلبها الخاص بتسلمه(٤٩) . فأعلن ملكها ماتياس كورفانوس فى عام ١٤٨٢ استعداده لبدء حرب مقدسة ضد الأتراك إذا ماقام البابا بتسليمه إليه وقام ملوك أوروبا بمساندة جهوده والهجوم على الدولة العثمانية بحراً . ولكن أحداً لم يستجب إليه فاضطر فى العام التالى إلى عقد الهدنة مع بايزيد الثانى لمدة خمس سنوات(٥٠) . وما أن انقضت مدة الهدنة هذه حتى فكر مرة ثانية فى تجديد مسعاه ، وبخاصة أن الفرصة كانت مواتية لبدء هجومه على العثمانيين ، بعد هزيمتهم الأولى أمام المماليك ، واستمداد الفريقين للجولة الثانية . فجاء سفيره إلى ردوس فى ١٠ يونيو ١٤٨٨ يخبر دوبوسون أنه على اتصال ببعض كبار العثمانيين الذين وعدوه بالتخلى عن بايزيد ومساعدة جم إذا ما تقدم جم على رأس قواته . ولكن رئيس الفرسان كان يخشى تعرض الجزيرة للغزو من جانب الأسطول العثمانى الذى عبر مياهها الإقليمية فى ٢٨ مايو السابق ، فى طريقه

---

(٤٧) Hammer : III, pp. 361-362,365— Thuasne : 104-105.

(٤٨) انظر بعد .

(٤٩) Hammer : III, p. 360,363— Thuasne : pp.99-100.

(٥٠) Thuasne : pp. 120-103,127.

نحو أدنة وطرسوس لمقاتلة المماليك ، ولذلك رفض استجابة طلبه وعلّق ذلك على ضرورة موافقة البابا(٥١) . وبعد انتصار المماليك على العثمانيين فى ١٥ أغسطس جدّد ملك المجر مسعاه لدى البابا الذى كان يقوم فى نفس الوقت بمفاوضة شارل الثامن لنقل جم إلى روما حتى يتمكن من مهاجمة الأتراك فى هـذا الوقت المناسب . ولـكن البابا رفض تحقيق طلبه لأن شارل الثامن كان يشترط عليه مقابل السماح بتسلمه عدم تسليمه لأحدٍ إلا بموافقته شخصيًا . ولذلك عاد ماتياس كورڤانوس ، مضطرًّا للمرة الثانية إلى تجديد الهدنة القائمة بينه وبين بايزيد الثانى لمدة ثلاث سنوات أخرى(٥٢) .

وكان فرديناند الثانى ملك نابولى وصقلية يسعى هو أيضاً لأن يكون جم تحت يده. إمّا لاتخاذه ذريعةً لمحاربة العثمانيين أولمسالمتهم . وإبعادخطرهم عن مملـكته ، أولمساومة المماليك على تحقيق أهدافه السياسية فى جزيرة قبرص . فالبندقية بعد عقد الصلح مع محمد الثانى فى عام ١٤٧٩ حرّضته على مهاجمة مملـكة نابلى التى كانت فى عداء معها ، فتقدمت الأساطيل العثمانية نحو ميناء أُترَنتو Otranto فى عام ١٤٨٠ واستولت عليها، إلا أنها أُجبرت على الرحيل عنها فى العام التالى(٥٣) . وعادت البندقية مرة ثانية فى عام ١٤٨٤ إلى تحريض بايزيد الثانى على مهاجمة مملـكة نابلى ولـكن دوبوسون كان يخشى خروج الأساطيل العثمانية إلى عرض البحر خوفاً من أن تتحول إلى غزو جزيرة رودس، ولذلك فقد ضغط على بايزيد للـكف عن استعداداته الحربية ، مهدداً إياه بتسليم جم إلى أحد أعدائه(٥٤) ومن جهة ثانية كان فرديناند الثانى يعمل منذ مدة طويلة من أجل الحصول

---

(٥١) انظر بعد (العلاقات بين قايتباى ورودس والمجر فى عام ١٤٨٨)

(٥٢) Thuasne : p. 200.

(٥٣) شارل ديل : البندقية ، ص ١٤٠ ، ١٦٨

Hill : A history of Cyprus, vol. III, The Frankish period. 1432-1571, Cambridge 1948, pp.733-743.

(٥٤) Thuasne : 118-119.

على عرش قبرص لدون ألونزو Don Alonzo أحد أبنائه غير الشرعيين(٥٥) . وكاد جم يقع فى أيدى رجاله أثناء عبور السفينة التى تنقله عبر مضيق مسينا(٥٦) . وما أن وصل جم إلى جنوب فرنسا حتى بادر يطالب رئيس الاستبارية بتسليمه إليه . ثم عاد فجدّد مطالبته هذه فى عام ١٤٨٥ بعد أن علم بنوايا بايزيد الثانى العدائية ضد مملكته(٥٧) وطلبه مرة أخرى البابا أنوسنت الثامن أثناء مفاوضاته مع شارل الثامن . إلا أن البندقية كانت حريصة على إفساد مسعاه ، فأخبرت البابا بأنه متفق سراً مع بايزيد على تسليم جم له مسالماً له ، وبذلك سيتحول العثمانيون إلى محاربة البنادقة(٥٨) .

أما البندقية فقد ظلت تندب الحظ الذى لم يمكنها - وهى سيدة البحر المتوسط من وقوع هذا الصيد الثمين فى يدها(٥٩) حتى تستطيع مساومة بايزيد الثانى بعد هـذا الصلح الشائن الذى اضطرت لعقده مع أبيه ، وهو الصلح الذى لم يترك لها سوى بعض المراكز التجارية ذات القيمة الثانوية فى شبه جزيرة المورة وبعض الجزر الصغيرة فى مدخل بحر الادرياتيك وجزيرة كريت وجزيرة قبرص التى كانت تباشر شئون الحكم الفعلى فيها باسم الملكة كاترين كورنارو(٦٠) . أما ولم يُقدّر لهـا ذلك فقد عملت دبلوماسيتها على الاحتفاظ بصداقة العثمانيين درءاً لخطرهم حتى تتفرغ لسياستها فى إيطاليا التى استلزمها انسحابها من شبه جزيرة المورة وبحر الأرخبيل ومواجهة القوى الإيطالية المتحالفة ضدها وهى : البـابا ونابلى وفرّارا وفلورنسه وميلانو . وكانت

---

(٥٥) انظر بعد .

(٥٦) Hammer: : III, p. 358.

(٥٧) Thuasne : pp. 101-102,133.

(٥٨) Ibid : p.188.

(٥٩) Ibid : p. 198.

(٦٠) شارل ديل : البندقية ، ص ١٤٠

Ganshoff : Histoire des rélations internationales. Le Mayen-Age, Paris 1935, p. 256.

حريصةً أيضاً على أن تتوّج سياستها التى بدأتها فى جزيرة قبرص عقب وفاة جيمس الثانى فى عام ١٤٧٣ بضم الجزيرة إلى ممتلكاتها . ولم تكن تخشى البندقية على سياستها هذه جانب المماليك ، إذ قد عرفت بخبرتها الطويلة معهم كيف تحقق أغراضها مع سلاطينهم بدبلوماسيتها المرنة وبالأموال والهدايا التى كانت تقدمها إليهم وإلى كبار الأمراء ، وإنما كانت تخشى أن يتجه العثمانيون أثناء الحرب المملوكية العثمانيـــة إلى انتزاعها واتخاذها قاعدة لهم فى مهاجمة الشواطئ المملوكية[٦١] . ولذلك كانت تعمل جاهدةً على أن يظل نجم فى نيس بعيداً عن مسرح الحوادث بالشرق الأوسط ، ومن أجل ذلك تصدت لإحباط إعادته إلى العثمانيين ووقوعه فى يد أحد أعدائهم . واكتفت فى عام ١٤٨٣ ببذل الوعود لبايزيد الثانى عندما أرسل إليها اسكندربك القائد الألبانى المشهور يفاوضها فى أن تعمل على تسليم نجم إليه فى مقابل التنازل لها عن شبه جزيرة المورة ، ولم تتحرك خطوة نحو تحقيق هذه الرغبة[٦٢] . وفى العام التالى قابلت بكل تحفظ العرض الذى تقدم به دوبوسون بأن يسلم إليها جم ، وقررت بعد أن ناقشته فى جلسة سرية عدم الاستمرار فى هذه المفاوضات لكيلا تثير شكوك السلطان العثمانى[٦٣] . وفى نفس العام اعتذرت للسفير الذى أرسله دوق ساڤوى الذى جاء يعرض عليها الاتفاق على تهريب جم إليها على أن تقوم البندقية بمساعدته فى الحصول على حقوق الملكة شارلوت فى عرش قبرص ، وهى الحقوق التى كان من المتفق عليه أن تؤول إليه بعد وفاة شارلوت[٦٤] . بل ذهبت إلى أبعد من هذا ، إلى إحباط الاتصالات بين قايتباى ودوق ساڤوى[٦٥] ، وإحباط مساعى ملك نابولى لدى البابا فى عام ١٤٨٨[٦٦] .

---

(٦١) انظر بعد .

(٦٢) Thuasne : 106.

(٦٣) Ibid : pp. 124-125.

(٦٤) Ibid : pp. 109-110

(٦٥) انظر بعد العلاقات بين قايتباى وشارل الثامن ساڤوى .

(٦٦) Ibid : 188.

وحاول البابا أنوسنت الثامن التوفيق بين هـذه القوى الأوروبية المتعارضة . إلا أنه لم يوفق فى ذلك بسبب سياسة البنادقة والروادسة الذين وضعوا فى المقام الأول من سياستهم تجنب عـداوة العثمانيين خوفاً على ممتلكاتهم ولما يعرفونه من فشل محقق للمشروعات الصليبية(٦٧) . ولذلك بدأ البابا يفكر جديا منذ عام ١٤٨٥ فى نقل جم إلى روما والتحفظ عليه تحت يده إلى أن يحين الوقت المناسب لتنفيذ مشروعه(٦٨) . وفى ١٣ فبراير ١٤٨٦ تمكن من الوصول إلى اتفاق مع دوبوسون فى هذا الصدد ، مقابل منحه قبعة الكردينالية والموافقة على ضم بعض طوائف الرهبان إلى طائفه فرسان القديس يوحنا مع ما يتبع ذلك من ضم أموالهم وممتلكاتهم(٦٩) . وفى العام التالى نشط لمفاوضة شارل الثامن ملك فرنسا فى نقله إلى روما وطالت هذه المفاوضات واستغرقت ما يقرب من عام نظراً لتشدد ملك فرنسا من جهة ، ونظرا للمحاولات التى قام بها كل من ملك المجر وملك نابلى ، وفلورنسة لتسلم جم . وأخيراً غادر جم جنوب فرنسا إلى روما فى ٨ نوفمبر سنة ١٤٨٨ فوصلها فى ١٣ مارس سنة ١٤٨٩ (٧٠) .

وما أن استقر المقام بجم فى القصر البابوى حتى طلب من البابا السماح له بالسفر إلى القاهرة لرؤية والدته وزوجته وأولاده فلم يسمح له بذلك (٧١) . وفى روما تقابل سفير بايزيد الثانى وسفير قايتباى ، كل منهما يحاول أن يحرك العواطف الإنسانية فى قلب البابا حتى يطلق سراح جم ، ثم انتقل كل منهما من التوسل إلى المساومة . فعرض السفير العثمانى أن يسلم للبابا جميع مخلفات القديسين الموجودة بالقسطنطينية ،

---

(٦٧) Ibid : pp.126-127.

(٦٨) Ibid : pp . 128-133.

(٦٩) Ibid pp. 138-140

(٧٠) Ibid : p. 176—Hammer III, pp. 365-366

(٧١) Hammer : III, p. 376

وأشار السفير المصرى إلى انتصار المماليك على العثمانيين فى العام الماضى وطالب بتسليمه إلى قايتباى أو لأحد أعداء العثمانيين حتى يتحقق النصر النهائى على العثمانيين وأخيراً عندما وجد البابا معرضا عنه طالبه بماله من سلطة روحية أن يعمل على أن يرد دوبوسون المبلغ الذى كان قد أخذه وهو ٢٠ ألف دوكاه ، للإنفاق منه على نقل جم إلى القاهرة حسب اتفاقه مع قايتباى(٧٢).

* * *

وإذا كانت فرص النجاح تكاد تكون معدومة أمام بايزيد الثانى فى استعادة جم ، فقد كان الأمل كبيراً لدى قايتباى فى نجاح مساعيه فى هذا الصدد إذ كانت ترتكز دبلوماسيته على عوامل رئيسة ثلاثة تتصل بعلاقاته مع هذه القوى الأوروبية . وهى :

أولاً — خوف فرسان الاسبتارية من أن يتحول بايزيد الثانى بأسطوله إلى مهاجمة ردوس فى حالة انتصاره على المماليك .

ثانيا — النزاع حول عرش قبرص بين أبناء حنا الثانى بعد وفاته فى عام١٤٥٨ ثم طال هذا النزاع وتشعب واتسع نطاقه فشمل كلا من البندقية ومملكة نابلى ودوقية ساڤوى .

ثالثا — رغبة بعض الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وفلورنسة فى استئناف علاقاتها التجارية مع الدولة المملوكية ومنافستها للبندقية التى كانت تتمتع بالمركز التجارى الأول بها . وقد اشتدت هذه الرغبة بسبب تحول النشاط التجارى إلى أسواق الدولة المملوكية بعد استيلاء العثمانيين على امبراطورية طرابيزون فى عام١٤٦١ وعلى ميناء كافّا Caffa وغيرها من المراكز التجارية لجنوى فى شبه جزيرة القرم ، عام ١٤٧٥ وما ترتب على ذلك من القضاء على نشاط الأوروبيين التجارى فى البحر

(٧٢) Ibid : pp. 367-368

الأسود ، وتوقف هذا النشاط تقريباً مع القسطنطينية بسبب حروب محمد الثانى مع البنادقة فى شبه جزيرة المورة وبحر الأرخبيل .

أما رودس فقـد سارع قايتباى يعرض عليها فى عام ١٤٨٤ ، قبيل الحرب المملوكية العثمانية الأولى ، تجديد معاهدة الصلح معها للمرة الثانية. ووجدت ردوس فى ذلك العرض ما يجعلها تتفرغ لمراقبة حركات الأسطول العثمانى أمام مياهها (٧٣). وتحت ستار هذا التعاهد طالب قايتباى فى العام التالى بتسليم جم له شدا لأزره وعوناً له على النصر . واقتضى خوف دوبوسون من انتصار العثمانيين أن يتظاهر بالعمل على إجابة رغبة قايتباى ، بل دفعه دهاؤه إلى استغلال هذه الرغبة فى الحصول على الأموال لتغطية المصاريف اللازمة لنقل جم والإنفاق عليه . ويقال فى هذا الصدد أن دوبوسون كان يستغل إمضاء جم الذى انتزعه منه قبيل مبارحته رودس إلى فيلافرانكا فيكون له شرف المفاوضة باسمه وهى خسّة أخذها عليه كل من أرّخ لحياة جم من المؤرخين المسيحيين (٧٤) .

وتمخضت الجولة الأولى فى هـــذه الحرب عن انتصار المماليك فى عام ١٤٨٦ ، فتراخى قايتباى فى المطالبة بتسليمه إليه . إلا أنه عاود الاتصال بدوبوسون مرة ثانية عندما لاح فى الأفق قرب التصادم ثانيا مع العثمانيين فى عام ١٤٨٨ . وفى هذه المرة لم يشأ أن يرسل رسولا من المماليك وإنما اختار لهذه المهمة أحد أتباع فرديناند الثانى ملك نابلى الذين كانوا يقيمون بالقاهرة يواصلون التآمر ضد البندقية والسعى للحصول على عرش قبرص لابنه دون الوتزو . ولنترك الـكلام عن هذا المسعى حتى نعرض أولاً لموضوع النزاع على عرش قبرص .

فقد تجدّد النزاع حول عرش قبرص بعد وفاة جيمس الثانى فى عام ١٤٧٣ بين أخته الملـكة شارلوت التي كان قد نجح فى إقصائها عن العرش ، وبين زوجته الملـكة

---

(٧٣) Thuasne : p. 120.

(٧٤) Ibid : p. 96,133-135_Hammer : III, p. 363,364.

(٧٥) انظر بعد . .

كاترين كورنارو إحدى شريفات البندقية . واشتد هذا النزاع بعد أن مات ابنه جيمس الثالث الذى ولد بعد وفاته فى ٢٦ أغسطس ١٤٧٤[٧٦] . وقفت البندقيـــة تؤازر « ابنتها » وباشرت شئون الحـكم بالجزيرة ووضعتها فى حماية أحد أساطيلها[٧٧] . ووقف فرديناند الثانى ملك نابلى بجانب شارلوت بعد أن تبنّت ابنه دون الوزو وباركت مشروع زواجه من الأميرة شارلا وهى ابنة غير شرعية لأخيها جيمس الثانى وأخذت تعمل على إجلاسهما على عرش قبرص . فدبرت مع فرديناند خطف هذه الأميرة الصغيرة التى كانت مبعدةً بالبندقية. ولما فشلت فى ذلك أبحرت فى عام ١٤٧٨ إلى الإسكندرية وبصحبتها دون الوز للحصول على موافقة قايتباى ومساعدته . وأتبع فرديناند رحيلهما بأن أرسل إلى الإسكندرية أسطولا يتـكون من ٢٢ سفينة لنقلهما مع القوة التى يجردها قايتباى فى صحبتهما إلى قبرص . ورحب قايتباى بهما على الرغم من أنه لم يكن ميالا للتدخل فى هذا النزاع طالما أن الجزية المقرة على الجزيرة تدفع له ، فقد وجد فى وجودهما بالقاهرة أداة للضغط بها على البندقية إذا ما اضطرته الظروف إلى ذلك ، فلم يكن يخفى عليه السياسة التى انتهجتها بقبرص عقب وفاة جيمس الثالث إلا أن إقامة شارلوت بالقاهرة قد نغصها وفاة الأميرة شارلا فى عام ١٤٨٠ واتجاه فرديناند إلى تزويج ابنه من الملـكة كاترين وكانت لا تزال شابة فى ريعان الصبا ، وخاصة بعد أن أبدت رغبتها فى الزواج لـكى تنجب وزيثا للعرش يفسد على البندقية خطتها . وأخذت فى الاتصال بأنصار فرديناند من النابليين والـكتلان الموجودين

---

(٧٦) Ziada : The mamluk conquest of Cyprus in the fifteenth century, in 13, F. A., Universitey of Cairo, vol. II, may 1943 (part II) pp. 44-54 — Hill : III, pp. 598-599, 601,602, 603-604,651-652,658:663,664-665,669,679,711-712,725.

(٧٧) Hill : III, p. 690,694,695,711-721,717-720,729,733, 735-736,737.

بالجزيرة . فتركت شارلوت دون الوتزو وغادرت القاهرة فى أواخر عام ١٤٨١ ووصلت روما فى يناير من العام التالى(٧٨).

وفى هـــذا العام أيضا توفى زوجها الملك لويس ، فواصل شارل الأول ، دوق سافوى الـكفاح بعده بمقتضى الاتفاق الذى عقد مع شارلوت فى عام ١٤٦٢ والذى ينظم حقوق آل سافوى فى عرش قبرص إذا ما ماتت دون وريث لها(٧٩). وجدّ فى الميدان السياسى أيضاً موضوع جم ، فاتخذت منه هذه القوى المتنازعة وسيلة لمساومة فايتباى فى تحقيق مصالحها . فبمجرد وصول جم إلى نيس قام دوق سافوى بزيارته وتقديم الهـدايا إليه ، واعـداً إياه بالعمل على تخليصه (٨٠). وفى عام ١٤٨٤ تعددت مساعيه لتحقيق أهـدافه فأرسل سفيرا من قبله إلى البندقية يعرض عليها الاتفاق على تهريب جم إليها ، إلا أن البندقية اعتذرت لانشغالها فى حرب فرارا . فاتجه إلى عدوتها فلورنسه وأوعز إليها بالعمل على إجلاس شارلوت على عرش قبرص بالقوة ، إلا أن هذا المشروع أهمل أمره بعد أن عقد الصلح مع البندقية فى ١٦ أغسطس من نفس العام(٨١) وفى هذا العام أيضا قبضت سلطات البندقية بجزيرة مودون Modon على عميل من عملاء فايتباى يدعى نقولا النيقوسى Nicolas de Nicosie ومعـه رسائل تؤكد الصلة بين الأمير جم وأمه عن طريق دوق سافوى . ولم تشأ البندقية أن تغضب فايتباى فاكتفت بإطلاق سراحه ومنعه من مواصلة رحلته إلى نيس(٨٢).

---

(٧٨) Ibid : p. 601,604,605,606,607-608,609.610,664-665,669,729-730 — Le Voyage d'Outremer de Jean Thenaud, suivie de le relation de l'ambassade de Domenico Trevisan auprès du Saudan d'Egypte en 1512 ed. Schefer, Paris 1884, pp. XXXI-XXXII.

(٧٩) Hill : III, p. 587,610.

(٨٠) Hammer : III, p. 360,391 — Thuasne:pp.99-100

(٨١) Hill : III, p. 611

(٨٢) Thuasne : p. 118

وحاول السفير البندقى أثناء مفاوضاته التجارية مع قايتباى فى عام ١٤٨٣ إيغار صدره إزاء دون الوتزو ، إلا أنه لم يتمكن من ذلك بسبب وجود كثير من أفراد حاشيته بالقاهرة . وطال مقام هذا الأمير بالقاهرة دون أن يتخذ قايتباى أية خطوة فى سبيل إجلاسه على عرش قبرص ، إذ لم ينجح أبوه فى تسليم جم إليه ، فغادرها إلى نابلى حيث وصلها فى ٢٧ سبتمبر ١٤٨٧(٨٤) . وظل أتباعه بالقاهرة وعلى رأسهم رزّودى مارينو Rizzo de Marino وترستانودى جبلتو Tristano de Gibleto يواصلون خدمة مصالحه ، وظل الاتصال قائما بين قايتباى وبين أبيه بعد رحيله(٨٥) .

وقبيل نشوب المعركة الثانيـــة ضد العثمانيين رأى قايتباى إرسال رزّودى مارينو لمفاوضة رئيس الفرسان فى تسليم جم له ، فوصل رودس فى ١٠ يونيو ١٤٨٨ فى نفس الوقت الذى وصل فيه سفير ملك المجر. وردّ دوبوسون مساعى السفيرين ، فما كان من رزّودى مارينو إلا أن اصطحب معه إلى القاهرة السفير المجرى، فوصلاها فى شهر (رجب ٨٩٣هـ/يونيو ـ يوليو ١٤٨٩) . وفى القاهرة تيسّر التفاهم معه بفضل وجود عدد كبير من كبار أمراء المماليك من أصل مجرى . وهم (الأسرى الذين أهداهم مراد الثانى إلى جقمق عقب انتصاره فى موقعة ورنة Warna(٨٦) ويقال إن السفير المجرى تقابل فى القاهرة مع رسول من قبل جم(٨٧) ، لانعرف شيئا عنه ولاعن الظروف التى جاء فيها.

---

(٨٣) Hill : III, p. 735

(٨٤) Ibid : p. 609

(٨٥) ابن إياس ، طبعة استانبول ، ج٣، ص ٢٣٩ [فى ذى القعدة ٨٩٢ هـ / أكتوبر ـ نوفمبر ١٤٨٧ كلف قايتباى قسس كنيسة القيامة بالقدس إرسال أحدهم إلى صاحب نابلى ليكاتب صاحب قشتالة بأن يحل عن أهل الأندلس ويرحل عنهم وذلك بعد أن وصل قاصد من صاحب الأندلس يطلب نجدته]

(٨٦) Le Voyage d'Outremer, p. XXXII.

(٨٧) قارن بين ماذكرته المراجع الآتية خاصا بهذا السفير :

Thuasne : pp. 198-199 — Hill : III, p. 739. n. 3 — Wiet : Traduction d'Ibn Iyas. Histoire des Mamlouks Circassiens, T. II, (872-906), Le Caire 1945,284.

ابن اياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ص ٢٤٨ ـ الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٧ .

وكيفما كان الأمر فإن الجهود المشتركة لقايتباى وملك المجر لم تؤد إلى نتيجة ما .

وشهدت القاهرة فى نفس العام وصول خطاب دوق ساڤوى المؤرخ فى ١٨ أغسطس سنة ١٤٨٨ على يد رسول من قبله يخبر قايتباى بوفاة شارلوت فى العام السابق بعد أن صدّقت على وثيقة تنازلها له عن حقوقها فى عرش قبرص ، وأنه يأمل بمساعدة الله وبمساعدته ، وهو السلطان الشرعى للجزيرة ، فى استرداد حقوقه(٨٨) . ومهما يكن من الأمر فإن هذه الاتصالات لم تسفر عن شىء ما ، إذ رحل جم إلى روما فى ٨ نوفمبر من نفس السنة .

ومنذ عام ١٤٨٦ ، وعلى وجه التحديد قبيل نشوب الحرب العثمانية المملوكية الأولى ، والبندقية تخشى على جزيرة قبرص من تحركات الأسطول العثمانى والاستيلاء على ميناء فاجوستا لاتخاذها قاعدة له فى عملياته الحربيـــة ضد السواحل الشامية . فوضعت الجزيرة فى حماية أحد أساطيلها وزوّدت قائده بتعليمات محددة تقضى بمعاملة الأسطول العثمانى معاملة ودية وبأن يسمح لثمانية أو لعشر سفن فقط من سفنه بالرسو فى فاجوستا إذا ماطلب التزوّد بالمؤونة . واشتد هذا الخوف مرة ثانية قبيل نشوب المعركة الثانية بين العثمانيين والمماليك فى عام ١٤٨٨(٨٩) . ومن جهة ثانيـــة اشتدت المؤامرات ضد البندقية داخل وخارج الجزيرة ، وهى المؤامرات التى كانت تهدف إلى زواج الملـكة كاترين من دون الوڤزو . واكتشفت البندقية تآمر قايتباى مع رزّودى مارينو ، وتريستانودى چبلتو ، من أتباع فرديناند الثانى ملك نابلى المقيمين بالقاهرة ، بقصد تهريب الملـكة من الجزيرة(٩٠) . ولذلك قررت البندقية ، بعد هزيمة العثمانيين

---

(٨٨) Hill : III, p. 611-612, 614-615

(٨٩) Ibid : pp. 735-736.

الأستاذ توفيق اسكندر : سفارة بييرو ديدو ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص عام ١٤٩٠ ، القاهرة ١٩٥٦ . انظر الوثيقة الأولى . [التعليمات إلى السفير البندقى والمؤرخة فى ١٠ سبتمبر ١٤٨٩] من ٥ ــ ٦ .

(٩٠) Hill : III, p. 738,739-740,741-742.

فى ١٥ أغسطس ١٤٨٨ ، رفع علمها على الجزيرة والضغط على كاترين للتنازل عن حقوقها ورحيلها للإقامة فى البندقية ، وتم للبندقية ما أرادت فى شهر مايو من العام التالى(٩١) . ثم أخذت البندقية بما عرف عنها من مهارة دبلوماسية ، تعمل على صبغ هذا التنازل بالصيغة الشرعية بالحصول على موافقة قايتباى صاحب السيادة على الجزيرة . فأرسلت فى بادئ الأمر ، رسولها ماركو ماليبرو Marco Malipiero يمهد لذلك بالتعاون مع قنصلها بالإسكندرية . ثم أرسلت سفيرها بييرو ديدو للانتهاء من هذه المهمة وزودته بالتعليمات اللازمة لذلك فى ١٠ سبتمبر ١٤٨٩ . وكانت البندقية حريصة فى تعليماتها للسفير ، أن يعالج فى مهارة موضوع جم مع السلطان إذا ماسأل عنه ، فيجيب بأنه يقيم فى القصر البابوى منعماً مكرماً . وأن يتجنب مقابلة والدة جم ، وإذا استلزم الأمر مقابلتها فيكون ذلك بعد الحصول على إذن السلطان وذلك جرياً على سياستها بالابتعاد عن هذا الموضوع . ووصل السفير البندقى إلى الإسكندرية فى نوفمبر ولكن مفاوضاته بالقاهرة طالت ولم يتمكن من عقد المعاهدة التى تنظم العلاقة بين البندقية والدولة المملوكية بخصوص قبرص إلا فى ٩ مارس ١٤٩٠(٩٢) .

ويشير تقرير السفير البندقى إلى الدوج بعد وصوله إلى الإسكندرية والمؤرخ فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٤٨٩ إلى وجود رسول بابوى بالقاهرة ، ومعه رسول تركى حضر معه من روما من قبل جم ليطمئن والدته عليه ، وأن السلطان استقبله فى ٦ أغسطس ثم أرجأ مقابلته الثانية له مدة أربعين يوما بمناسبة حلول شهر رمضان والاحتفال بالعيد. وقد جاء الرسول البابوى يحمل خطابا من البابا يهنئ فيه السلطان بانتصاره الثانى على بايزيد الثانى ويحثه على المثابرة على قتاله ، وأنه يريد أن يعلم من السلطان شخصياً رغباته بخصوص جم . ثم زار الرسول البابوى ومعه رسول جم والدته وطمأناها على

---

(٩١) Ibid : p. 737,742-749,750.

(٩٢) الأستاذ توفيق أسكندر: نفس المقال ـ الوثيقة الأولى ، ص٧ ، والوثيقة الثالثة [معاهدة تنازل مصر عن قبرس للبندقية والمؤرخة في ٩ مارس ١٤٩٠] ص ١٣ ـ ١٥

سلامته(٩٣) . وتذكر بعض المصادر أن قايتباى كان يساوم البابا على تسليم جم له مقابل التنازل له عن القدس الشريف(٩٤) ، وهذه مبالغة تبعد كثيرا عن الحقيقة . وحقيقة الأمر أن البابا استغل رغبة قايتباى فى استعادة جم لتحقيق مطلب للرهبان الفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون بالقدس الشريف ، وهو مطلب تدخلت البابوية مرات سابقة لدى سلاطين المماليك لتحقيقه ، فهؤلاء الرهبان قد انتهزوا هذه الفرصة وطالبوا باستعادة القبو الذى يوجد به قبر داود عليه السلام ، وهذا القبو كان يعلوه قاعة الحواريين ومجاور من الجهة الشرقية للمكان الذى تناول فيه السيد المسيح العشاء الأخير مع حواريه ، وهو الذى يعرف « بعُلّيّة صهيون ـ Caenaculum » والذى أقيمت فوقه كنيسة العُلّيّة . وكان هـــذا القبو بيد الرهبان الفرنسيسكان حتى انتزعه منهم اليهود مرتين فى عهد المؤيد فى عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠ـ وفى عهد برسباى ٨٣٣هـ/١٤٢٩م، إلا أنهم نجحوا فى استعادته منهم عقب كل مرة . ثم آل أمره نهائيا فى عهد جقمق فى عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م بيد المسلمين وأقاموا به قبلة وحولوه إلى مسجد . وفضلا عن ذلك فقد قام الرهبان فى شهر صفر ٨٩٤هـ/يناير ـ فبراير ١٤٨٩ ببناء كنيسة محدثة بالقرب من الدير فوق مقام يدّعون أنه مقام السيدة مريم عليها السلام . وليس من قبيل الصدف أن يكلّف قضاة القدس ومشايخها فى شهر شعبان / يوليو من نفس العام ، وهو الوقت الذى كان موجودا فيـــه الرسول البابوى بالقاهرة ببحث شكوى الرهبان بقصد استعادة هذا القبو الذى يدّعون أنه من حقوقهم ، ثم يعاد هذا الطلب فى أوائل عام ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م . ويبدو أن هذا التكليف لم يكن جديا ، إذ كان يراد منه التظاهر بالعمل على تحقيق رغبة البابا أملًا فى أن يقوم من جانبه بإرسال جم إلى القاهرة . والدليل على ذلك أنه لم تتخذ أية خطوة إيجابية فى هذا الصدد ، إلا عند ما أصدر قايتباى مرسوماً شريفاً وصل إلى القدس فى آخر جمادى الآخرة من نفس العام ٢٠ مايو ،

---

(٩٣) نفس المرجع السابق ، الوثيقة الثالثة [خطاب السفير البندقى إلى الدوج بعد وصوله إلى الأسكندرية المؤرخ فى ٢٤ نوفمبر ١٤٨٩] ص ١٠ ـ ١١

(٩٤) الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٨ .

يأمر القضاة ومشايخ الإسلام ببحث موضوع الكنيسة المحدثة وموضوع القبو . فسارعوا إلى الاجتماع بالمسجد الأقصى بعد ذلك بيومين وقرروا هدم الكنيسة لأنها محدثة فى الإسلام وبقاء القبو فى يد المسلمين نظراً لما ثبت لديهم من عدم أحقية الرهبان فى امتلاكه ونظراً لما سبق تحويله إلى مسجد يذكر فيه اسم الله(٩٥) . وواضح أن هذه الخطوة قد اتخذت بعد أن فشلت مساعى قايتباى مع البابا لاستعادة جم .

وشهدت السنوات التى كان جم مقيما أثناءها بجنوب فرنسا توقف العلاقات التجارية بين مصر وفرنسا . ووجد قايتباى فى رغبة لويس الحادى عشر وشارل الثامن فى العمل على استئنافها فرصة طيبة للمطالبة بتسليمه إليه . وكانت فرنسا قد بذلت جهودا متواصلة لإنعاش تجارتها مع الدولة المملوكية بعد تدهورها عقب القبض على التاجر جاك كير Jacques Coeur ومحاكمته فى عام ١٤٥١ ، والقضاء على احتكار التجار الإيطاليين للأسواق الفرنسية(٩٦) . إلا أن هذا النشاط قد توقف بعد الغارة

---

(٩٥) مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، طبعة القاهرة ١٢٨٣ هـ ، ج ٢ ص٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ـ ٦٨١ ـ انظر دراستنا عن النزاع بين الرهبان الفرنسيسكان واليهود والمسلمين على قبر داود وعليه صهيون (تحت الطبع) .

(٩٦) فى عام ١٤٥٦ أصدر شارل السابع عفوه عن جان دى فيلاج Jean de Village قريب جاك كير وأخلص رجاله ، ثم عينه لماله من خبرة بالشئون التجارية بالمشرق قائدا للسفن التجارية الفرنسية المخصصة للابحار إلى الأسكندرية . وأتبع ذلك بأن أرسل فى نفس العام سفيراً لدى السلطان المملوكى الأشرف اينال يوصيه بحسن معاملة التجار الفرنسيين الوافدين إلى بلاده . ولكن هذا النشاط ما لبث أن توقف بعد عامين بسبب نشوب الحرب بينه وبين الفونسو الخامس ملك نابلى وأراجون. وما إن انتهت هذه الحرب فى عام ١٤٦٣ ، حتى بادر خلفه لويس الحادى عشر باتخاذ خطوات ايجابية لإنعاش التجارة الفونسية ، وذلك بمحاولة القضاء على منافسة التجار الإيطاليين والعمل على استئناف العلاقات التجارية مع مصر . فأصدر قراراً يحرم دخول البضائع الواردة من المشرق إلى فرنسا إلا عن طريق الموانئ الفرنسية الجنوبية . ثم قام ببناء أربعة سفن تجارية واختار لها ميناء أيج مورت Aigues -Mortes كقاعدة تبحر منها إلى الإسكندرية . وفى عام ١٤٧٦ حلت محلها مرسيليا على الرغم من أنها لم تكن تابعة وقتذاك للتاج الفرنسى . ونتيجة لهذه الجهود سجلت السنوات : ١٤٦٤ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧٢ ، ١٤٧٥ نشاط التجار الفرنسيين بميناء الإسكندرية . انظر :

التى شنها التجار البروفنساليون على ميناء الإسكندرية فى عام ١٤٧٥ وقبضو على عدد كبير من تجارها وكان بينهم بعض تجار السلطان كابن عليبه وغيره ، وقابلت السلطات المملوكية هذا الإجراء بالقبض على جميع تجار الفرنج بالمدن والموانئ المصرية والشاميـــة وألزمتهم بمكاتبة ملك فرنسا لإطلاق سراح هؤلاء التجار . ونجحت جهودهم فأطلق سراحهم فى العام التالى بعد أن اشتروا أنفسهم كما يقول ابن إياس (بمال له صورة ، وقد جرى عليهم أمور يطول شرحها حتى خلصوا من بلاد الفرنج واستمر ابن عليبة من يومئذ مريضا إلى أن مات بعد مدة)[٩٧] . وفى عام ١٤٧٦ أرسل لويس الحادى عشر وزير ماليته ميشيل جيار Michel Gaillard للعمل على محو الأثر السيء الذى تركته هذه الغارة وما ترتبت عليه من موجدة قايتباى[٩٨] . ولكن جهوده لم تكلل بالنجاح . والشواهد على ذلك عديدة . فنحن لا نلحظ أى نشاط تجارى للفرنسيين بالأسكندرية فى الفترة التى أعقبت ذلك . والرحالة الألمانى فيلكس فابر Felix Faber الذى زار مصر فى عام ١٤٨٣ يسجل خلو فندق الفرنسيين بالإسكندرية من البضائع والتجار [٩٩] . وأخيراً فإن الآثار التى ترتبت على هذه الغارة بالنسبة لبضائع وأموال التجار الفرنج المقيمين بالدولة المملوكية لم تسو إلا فى عام ١٤٨٩ كما يستدل على

Heyd : Histoire du Commerce du Levant, II, pp. 484-485 — De Viriville : Histoire de Charlas VII, Paris 1886, p. 440 — Pigeonneau : Histoire du Commerce de la France, vol. I, Paris 1885, p. 366,397 - Spont : La Bourgeoisie financière au début du XVIie siecle, p. 3 et n. 2, p. 4 - Baratire et Reynaud : Histoire du Commerce de Marseille, T. II (1291-1480), Paris 1951, P. 354,355-356-357,362-363.369.

(٩٧) ابن اياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ١١٠ ، ١١٥ .

Heyd : II, p. 496 et notes 5,6 — Baratier et Reynaud: II, p.366

(٩٨) Baratier et Reynaud : II, pp. 397-368 .

(٩٩) Idid : p. 479

ذلك من تقرير السفير البندقى بيبرو ديدو إلى دوج البندقية فى هذا العام(١٠٠) . وترتب على توقف العلاقات التجارية بين الدولتين أن تمكن التجار الإيطاليون من العودة إلى السيطرة على الأسواق الفرنسية وغمرها بالضائع المستوردة من الشرق . وقد اضطر شارل الثامن إلى التدخل لحماية التجارة الفرنسية عندما رفع إليه وزير ماليته دوربول Doriole تقريره فى عام ١٤٨٨ عن مدى ما تعانيه التجارة الفرنسية من ركود . فأصدر فى هذا العام قراراً يحرم إدخال أية بضائع إلى فرنسا مالم تكن منقولة على سفن فرنسية وفى نفس الوقت أرسل جيوم بريسونيه Guillaume Briçonnet للسعى لدى قايتباى من أجل استئناف العلاقات التجارية مع مصر والوصية بالتجار الفرنسيين . وانتهز قايتباى هذه الفرصة وطالب بتسليم جم إليه ، ويذكر فى هذا الصدد أنه عرض مليون دوكاه مقابل ذلك(١٠١) . ولكن قايتباى لم يكن فى حاجة إلى أن يعرض هذا العرض المالى ولا كان فى قدرته أن يفى به ، وإنما علق استئناف الفرنسيين لنشاطهم التجارى على تسليم جم له . وهو أمر تعذر تنفيذه نظرا للضغط الشديد الذى كان يبذله البابا لدى شارل الثامن منذ عام ١٤٨٧ لنقل جم إلى روما فضلا من عدم رغبة شارل الثامن فى تسليمه إلى أية قوة من القوى التى تتنازع أمره . وهكذا فشلت جهود قايتباى ، وحرم التجار الفرنسيون من الاتجار مع مصر فترة طويلة أخرى(١٠٢) .

ويتضح من دراسة العلاقات التجارية بين فلورنسة ومصر أنها كانت موضوعاً للمفاوضات بين البلدين فى الفترة ما بين عامى ١٤٧٩ و١٤٨٩ وتعثر هذه المفاوضات واستمرارها هذه المدة الطويلة يكشف عنه موضوع جم . فقايتباى انتهز هذه الفرصة

---

(١٠٠) الأستاذ توفيق إسكندر : سفارة بيرو ديدو . الوثيقة الثالثة ، ص ١١ .

(١٠١) Pauqueville : Histoire du Commerce de France, dans Mémoires de l'Inst. Roy. de France. T. XI, p. 549 — Heyd : II, p. 488 — Thuasne : p. 200

الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٧ .

(١٠٢) Heyd : II, p. 486 — Arnold von Harff : The pilgrimage of Arnold von Harff, p. 95.

لاستخدام فلورنسة كعميلة له فى استعادة جم وكانت فلورنسة تتظاهر من جانبها بتحقيق رغبته ، ولـكنها فى حقيقة الأمر كانت حريصة على صـــداقة العثمانيين وعلى المحافظة على المركز التجارى الذى نالته بالقسطنطينية منذ عام١٤٥٥ منافسة للبنادقة هناك(١٠٣) . وفوق هذا وذاك فإن عداءها للبندقية ولسياستها فى الأرض اليابسة كان يقتضى منها أن يكون جم فى يدها تتخذه وسيلة لمساومة العثمانيين ضد البندقية(١٠٤) . وقد توقفت علاقاتها التجارية مع مصر ، على أثر الغارة التى شنها البروڤنساليون على الإسكندرية فى عام ١٤٧٥ ، إذ أن انتقام قايتباى قد شمل جميع طوائف الفرنج(١٠٥) ويتضح هـذا من السفارة التى أرسلها قايتباى فى شهر ذى الحجة ٨٨٣ هـ / فبراير ـ مارس ١٤٧٩ إلى لورنزو العظيم ، الذى يسميه ابن إياس « ملك التليان » . وكان السفير المصرى أحد تجار الإسكندرية وهو الخواجا محمد بن محفوظ المغربى(١٠٦) . وهذا السفير توالت سفاراته إلى فلورنسة فى عهد قايتباى ولعب دورا هاما فى المفاوضات السرية الخاصة باستعادة جم . واجتمع التجار الفرنتيون فى ٢٧ نوفمبر ١٤٨١ ووضعوا مشروعا بالمقترحات التى يجب على السفارة المزمع إرسالها إلى القاهرة اتباعها فى مفاوضاتها . ولـكن هذه السفارة لم يتيسّر إرسالها إلى مصر وقتذاك مما دفع قايتباى

---

(١٠٣) Pernoud : Les Villes Marchandes aux XIVe et XVe siècles, Paris 1948, p. 122.

(١٠٤) انظر قبل الحرب بين البندقية وفلورنسه فى عام ١٤٨٤ .

(١٠٥) كان يمثل فلورونسه بالإسكندرية من عام ١٤٦٥ حتى عام ١٤٧٥ القنصل مريوتو سكارسيالوبى Mariotto Squarcialupi

انظر : Heyd,II : p. 488 - Baratire et Reynaud II, p. 366.

(١٠٦) ابن اياس لوطبعة بولاق، ج ٢ ، ص ١٨٥ ـ مما هو جدير بالذكر أن طبعة استانبول، ج٣،ص ١٤٥ ـ ١٤٦ تذكر أن هذه السفارة أرسلت إلى ملك الـكتلان ، ولكن الصحيح ، بناء على دراسة العلاقات بين فلورنسه وقايتباى ، أنها أرسلت إلى لورنزو العظيم.. وقد وقع فى هذا الخطأ أيضا الأستاذ فيت فى ترجمته الفرنسية لهذا الجزء . انظر :

Wiet : Traduction d'Ibn Iyas, p. 106.

إلى إعادة إرسال الخواجا ابن محفوظ مرة ثانية إلى فلورنسة فى عام ١٤٨٤(١٠٧) ، وكان قد جدّ فى الميدان السياسى موضوع جم .

وبدأت فلورنسة اتصالاتها بجم حذرةً من لفت الأنظار إليها . فدفعت أحدرعاياها وهو فرانسسكو برلنجيرى Francesco Berlinghieri إلى إهـداء جم نسخةً أنيقة من كتابه عن جغرافية العالم ، وجاء فى كلمة الإهداء المؤرخة فى ٣١ مايو ١٤٨٤ « أنه يقدم إليه مؤلفه هذا بعد ماعلم عن طريق أحد الفرنتيين المخلصين لشخصه العظيم ، وهو پاولودى كول Baolo di Colle اهتمامه بالأدب راجيـا أن يذكره الأمير يوماً ماعندما يجلس على عرش أجداده » . وپاولو هذا هوأحد التجار الفرنتيين الذين كانوا يترددون على مصر ، فنجده بعد ذلك بعامين أوثلاثة فى القاهرة يتولى أمر المفاوضات التجارية مع قايتباى(١٠٨) .

ولـكن هذه المفاوضات لم يتيسر نجاحها لأمرٍ لانعلمه . فعاد قايتباى إلى إرسال الخواجا ابن محفوظ مرة ثالثة إلى فلورنسة وكان فى صحبته هذه المرة مترجم من صقلية ، فوصلها فى ١١ نوفمبر ١٤٨٧ وقدم إلى لورنزو العظيم الهدايا الحافلة التى أحضرها له ، وكان من بينها أسد وزرافة أثارت دهشة الفرنتيين وإعجابهم . ثم اجتمع به لورنزو على انفراد حيث أخبره برغبة قايتباى فى نقل جم إلى مكان آخر أكثر أمناً لاتصل إليه يد أخيه بايزيد الثانى ، وأنه على استعداد لدفع مبلغ كبير من المال لوضعه تحت يد البابا أو أن يسلمه البابا إمّا لملك المجر أولملك نابلى أو إلى البنادقة ، وبذلك يحول البابا دون أن يقوم الأتراك

---

(١٠٧) Amari : I diplomi arabi del R. Aachivio Fiorentino, Firenze, 1863, p. 361-362, document no XLIV — Heyd : II, p. 488. n. 2 Malfoto ou

[Mazamet Elmalfet وهو كما جاء ذكره فى الوثيقة محرفاً]

(١٠٨) Heyd : II, p. 488 — Thuasne : p. 117

فيما يختص بميل جم إلى دراسة الأدب ونظم الشعر انظر : الدكتور حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٤٧ـ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ .

بأى عمل هجومى ضد أحدهم ، على أن يظل هذا الاتفاق سرا بين هذه الحكومات التى يهمها الأمر . وكان السفير المصرى يحمل أيضا خطاباً من الخليفة العباسى بالقاهرة موجهاً إلى البابا أنوسنت الثامن يذكر فيه أن جم لم يلجأ إلى رودس إلا بعد أن وعده دوبوسون بالأمان ولذلك فإن واجب البابا وهو الرئيس الأعلى للمسيحيين أن يبرّ بهذا الوعد وأن يردّ إلى جم حريته ويعيده إلى والدته وزوجته . وطلب السفير من لورنزو أن يمهّد له تدبير مقابلة البابا بروما . وتصادف أن مر بفلورنسة فى ذلك الوقت رسولان من قبل البابا فى طريقهما إلى باريس لمفاوضة شارل الثامن فى أمر نقل جم إلى روما وتجاهلا إخطار لورنزو بقصدهما عندما علما بوجود السفير المصرى(١٠٩) . ولذلك بادر لورنزو بإخطار البابا بأمر هذه السفارة خشية أن يُتهم بالتآمر مع إحدى الدول الإسلامية ، وعرض على البابا إرسال السفير المصرى إلى روما لمعالجة الموضوع مباشرة معه ، وقد وجد البابا فى هذا العرض المالى الذى عرضه السفير ما يكفل نجاح مفاوضاته مع ملك فرنسا ، إذ أن ذلك ييسّر تدبير المال اللازم لنقله والإنفاق عليه(١١٠) . وفى نفس الوقت سارع لورنزو بإبلاغ بايزيد الثانى نبأ هذه السفارة حتى لا يثير شكوكه وعداوته(١١١) ، وعمل أيضا على السعى لدى شارل الثامن ، فى الوقت الذى كان البابا يقوم بنفس المسعى لديه ، فأرسل إليه سفيرا قدم فيما قدم له من هدايا الزرافة التى أرسلها قايتباى وعرض عليه تسليم جم مقابل مائة ألف دوكاه(١١٢) .

ونحن لانعرف على وجه التحديد ، هل تمكن السفير المصرى من مقابلة البابا وتسليم خطاب الخليفة إليه أم لم يتمكن من ذلك ، ولكن الأمر المؤكد أن المفاوضات التجارية ظلت معلقة إذ يبدو أن إتمامها كان متوقفا على لورنزو فى تسليم جم إلى قايتباى . والوثائق الخاصة بهذه المفاوضات فى هذه الفترة التالية مضطربة فى هذا

---

(١٠٩) Thuasne : pp. 173-174.

(١١٠) Ibid : pp. 174-176 et notes — Heyd : II, p. 489.

(١١١) Thuasne : p. 175 et n. 2

(١١٢) Ibid : p. 192.

الصدد . فهى تشير إلى تـكليف السفير الفلورنسي لويچى دى أنجولو دلاستوفا Luigi d'Aangolo della stuffa بالسفر إلى القاهرةفى ١٠ نوفمبر ١٤٨٨والتنبيه عليه بضرورة المرور أولاً على روما لمقابلة الحبرالأعظم ثم على نابلى لمقابلة فرديناند(١١٣). ومن بين هذه الوثائق مرسوم لقايتباى أصدره إلى نائب الإسكندرية مؤرخ فى ٦ من محرم ٨٩٤/١٠ ديسمبر ١٤٨٨ يبلغه فيـه أن لقنصل الفرنتيين بالإسكندرية وسائر بلاد السلطان جميع الحقوق والامتيازات الممنوحةلقناصلة البندقية ويطلب منه تخصيص مكان للفرنتيين ينزلون به(١١٤) . ومن المشكوك فيه أن السفير الفلورنسى قد تمـكن من قطع هذه الرحلة الطويلة ثم الاتفاق مع قايتباى فى مدىشهر واحد(١١٥) .والثابت أن فلورنسة لم تتمكن من الاتفاق مع قايتباى إلا فى شهر نوفمبر ١٤٨٩ ، كما يستدل على ذلك من المـكاتبةالتى أرسلها إلى لورنزووالمؤرخة فى ٢٤ من ذىالحجة ٨٩٤هـ/١٨ نوفمبر ١٤٨٩(١١٦) ، ومن تقرير السفير البندقى إلى دوج البندقيـــة والمؤرخ بالإسكندرية فى ٢٤ نوفمبرمن نفس العام. وفى هذا التقرير يذكر السفير أن السفير الفلورنسى الذى كان موجوداً بالقاهرة لم يدع فرصة دون أن يتحدث جليًّا عن شئون البندقية(١١٧). ولا نعلم على وجه التحديد ما اتفق الطرفان عليه بخصوص جم . فهل وعدت فلورنسة بالعمل على تسليمه إلى قايتباى ؟ المعروف أن جم ظل مقيما بروما ولذلك فإن هذه المعاهدة لم يقدّر لها أن تنفّذ وظلّت بدورها حبراً على ورق ولم يتيسر للفرنتيين التعاهد مرة ثانية مع قايتباى إلا بعد وفاة جم ، عن طريق السفير المصرى ابن محفوظ أيضاً فى جمادى الآخرة ٩٠١ هـ / فبراير ١٤٩٦(١١٨) .

* * *

(١١٣) Amari : pp. 372-374, document ne XLXI.

(١١٤) Ibid : pp. 382-386, document no XLVIII.

(١١٥) Ibid : p. 486.

(١١٦) Ibid : pp. 181-183, document no XXXIX.
Heyd : II, pp. 487-490

(١١٧) الأستاذ توفيق إسكندر : سفارة بيرو ديدو ، الوثيقة الثانية ص ١١ ،

(١١٨) Amari : pp. 184-409, document no XL. pp. 210-213.
document no XLI.

وإذا كانت دبلوماسية قايتباى لم تنجح فى عامى ١٤٨٨ و ١٤٨٩ على الرغم من فرص النجاح العديدة أمامها فى استعادة جم ، فقد فُقد الأمل فى ذلك بزوال هذه الفرص ذاتها . ففشلت مفاوضاته التجارية مع فرنسا. ثم نقل جم إلى روما أبعد احتمال التفاهم مع ملك فرنسا ودوق سافوى ، وتصفية النزاع على عرش قبرص وصمها إلى البندقية أخرج فرديناند الثانى ملك نابلى ودوق سافوى أيضاً من ميدان المساومة . وكذلك مفاوضاته الطويلة مع فلورنسة ، ومع البابا لم تأت بأية نتيجة .

ومع ذلك جادت الأقدار على غير موعدٍ بما مكنه من النصر النهائى على العثمانيين أو على الأصح انسحاب العثمانيين من هذه الحرب بعد أن خرج علاء الدولة بن دلغادر على طاعتهم وانضم إلى المماليك عقب الهزيمة التى حلت به وبالعثمانيين فى أغسطس ١٤٨٨ ربما لأنه خشى على نفسه وعلى إمارته والنصر النهائى للمماليك أصبح أمراً مفروغاً منه ، أو ربما يعزى ذلك إلى دبلوماسية الأمير الكبير أزبك قائد العساكر المملوكية الذى وفق فى اجتذابه إلى جانب المماليك . بل زاد على ذلك أماناً له بأن تزوج من ابنته[١١٩] وانتقاما منه دفع بايزيد ضده أخاه شاه بوداق الذى كان قد تمكن من الفرار من قلعة دمشق فى شوال ٨٩٢هـ/أكتوبر ١٤٨٦ ولجأ إليه ، فأبقاه إلى جانبه انتظاراً لما عسى أن تتمخض عنه الحوادث ثم أمده بالعساكر العثمانية وأغار على أخيه بعد عصيانه فى ربيع الآخر ٨٩٤هـ/مارس-إبريل ١٤٨٩ إلا أن النصر لم يكن حليفه وخابت آماله فى عرش الإمارة ، فلم يلبث أن قدم القاهرة فى محرم ٨٩٥هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٤٨٩ مفارقا بايزيد الثانى [١٢٠]. وهذا يفسر الانتصارات السريعة لأزبك فى حملته الثالثة بآسيا الصغرى فى العام التالى ضد الحاميات العثمانية بقلعة الكولك

---

(١١٩) ابن اياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٢٦٢

Artin: p. 182,183-184,185.

(١٢٠) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٣٩ ، ٢٥٨ - ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٣٧٩ [ظل شاه بوداق مقيما بالقاهرة حتى توفى بها بالطاعون عام ٩٠٣ هـ]-

Artin : pp. 182-183.

وقيصرية ، ورجوعه إلى القاهرة دون أن يشتبك فى قتال فعلى مع القوات العثمانية الرئيسية (١٢١).

فى هذه الأثناء وصل إلى استانبول سفير سلطان تونس الفقيه مفتى على عربى يعرض وساطته لإنهاء النزاع بين بايزيد وقايتباى(١٢٢). واستجاب بايزيد لهذه الوساطة فأرسل قاضى قضاة بروصة الشيخ على چلبى إلى القاهرة فوصلها فى إبريل ١٤٩١ ولم يغادرها فى أواخر العام التالى إلا وكان الصلح قد تم وردت إلى الدولة المملوكية القلاع التى كان العثمانيون قد استولوا عليها(١٢٣).

ونشط بايزيد للمرة الأخيرة لاستعادة جم ، أو للتخلص منه بعد وفاة البابا أنوسنت الثامن وتولى اسكندر بورجيا عرش البابوية ووجد فى الصفات التى عرف بها هذا البابا ما شجعه على ذلك . وكان بصحبة السفير العثمانى السفير المصرى ، الشيخ عبد المؤمن الفارسى الذى أرسله قايتباى إلى استانبول فى عام ١٤٩٤ لتمكين أواصر الصداقة بين الدولتين (١٢٤). إلا أن هذه المفاوضات قطعها دخول شارل الثامن ملك فرنسا روما ثم تسلمه جم ورحيله معه إلى نابلى حيث توفى بها فى ٢٤ فبراير ١٤٩٥ بعد يومين من دخولهما المدينة .

---

(١٢١) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ـ الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٩ ـ

C. I. A., Egypte I, pp. 549-651 — Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 598-603.

(١٢٢) Artin : pp. 185-186.

(١٢٣) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ـ الدكتور زيادة : نفس المقال ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(١٢٤) Hammer : III, p. 368.

ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٣٠٩ ـ الدكتور زيادة : نفس المقال ، ص ٢١٠ .

وتجمع المصادر على وفاة جم بالسم البطئ وتذهب فى ذلك مذاهب شتى من توزيع الاتهامات هنا وهناك ضد من تآمروا عليه(١٢٥). ويهمنا فى هذا الصدد أن نثبت هنا رأياً جديداً ذكره مؤرخ مكة قطب الدين النهروالى ، فيذكر أن السلطان بايزيد أرسل إليه أحد عبيده فى صورة حلاق فاستخدمه وأمره أن يحلق له فحلق له رأسه بموسى مسمومة وهرب فى الحال وأثر السم فى رأسه وسرى إلى بدنه إلى أن مات(١٢٦).

وأرسل شارل الثامن مع السفيرين مخلفات جم ومن تبقى بجواره من أتباعه حتى أيامه الأخيرة(١٢٧). وكان من بين هذه المخلفات التى حملها أحد الأتباع بيضاء كان جم قد عودها على أن تصبح عليه كل صباح قائلة (نصر الله السلطان جم) وفى استانبول صبغ هذا التابع ريشها بالسواد وعلمها قولاً آخر ثم قدمها إلى بايزيد فقالت له (رحم الله السلطان جم)(١٢٨).

أحمد السيد دراج

---

(١٢٥) Hammer : III, pp. 370-375 — Alderson : table XXVII et note 18.

(١٢٦) قطب الدين النهروالى : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ٢٥٩

(١٢٧) Hammer : III, p. 374-875.

(١٢٨) الدكتور حسين مجيب المصرى: فارسيات وتركيات، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٧٣ ـ ٧٤.